الحياة المزدوجة للمدعو (ج)

FB.com/al.olia.books
FB.com/elrasm.blkalemaat
.dar.al.olia1@gmail.com
elrsmblklemat@yahoo.com
01008693129
01015105052
Instagram.com/al.olia1
Instagram.com/elrsmbkalemat

اسم الكتاب: الحياة المزدوجة للمدعو (ج).
الكاتب: سُلوان البري.
الطبعة الأولى: ٢٠٢٢ .
المراجعة اللغوية: نورهان سعيد.
الإخراج الداخلي: نورهان سعيد.
تصميم الغلاف: محمد علي.
رقم الإيداع:
الترقيم الدولي:

جميع الحقوق محفوظة للناشِر

وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يُعرِّض صاحبه للمُساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

الحياة المزدوجة للمدعو (ج)

رواية

سُلوان البري

الإهداء

إلى الأقارب الذين ما كانوا-في غلظتهم إلا أباعد..

إلى البعيدين الذين ما كانوا-في إحسانهم إلا أقارب..

إلى الذين أحسنوا إليَّ.. وإلى الذين أساؤوا أيضًا..

إلى كل الطيبين في حياتي.. وإلى الأوغاد أيضًا..

إليكم جميعًا، أهدي عملي الثاني.

تخترق أشعة الشمس حدود غرفته رويدًا رويدًا.. ببطء يبدأ في استيعاب الزمان والمكان من حوله، الساعة الآن تقترب من السادسة صباحًا، بعينين ناعستين وجسد متعب يحاول أن ينهض من سريره.

"لا شيء قادر على إيقاظ الرجل أكثر من حمام ساخن وفنجان من القهوة".

تتردد جملة أخيه في أركان عقله الخاوي، يشتاق إليه ويتمنى لو يراه أمامه الآن، ولكن ما بينهما من شقاق يحول دون تلك الرؤية، يحاول طرد الأمر من رأسه، لكن دون جدوى. ينظر بجانبه لتقع عيناه على زوجته، فيبتسم محياه، يربت على رأسها بلطف وهي تغط في سبات عميق غير شاعرة به..

- آه لو تعلم تلك المرأة مقدار حبها في قلبي! لا أحد سواها يُطيب نفسي وينسيني فقد أهلي!

بخطوات ثابتة أتجه نحو الحمام، أقف تحت الماء الساخن في محاولة يائسة للاستيقاظ، جسدي يؤلمني بشدة لا أعلم مصدرها. أنتهي من حمامي وأتجه لأداء

الصلاة، أتذكر وقتما كنت أصليها جماعة مع أبي وأخي وأبكي. أنهي صلاتي فأجدها بجواري تبتسم وتحمل بيديها فنجان قهوة أعدته لي بنفسها.

- حرمًا يا (أحمد)..
- جمعًا بإذن الله يا عزيزتي.

أتناول منها فنجان القهوة وأشكرها عليه، بينما تنظر هي إليَّ نظراتها القلقة المعتادة متى أرادت البدء في خوض حديث ما.

- ما الأمر يا(منال)؟ تكلمي أنا أسمعك!
- لقد هاتفتني والدتك البارحة.. (أحمد) إنها تعيسة جدًا من تصرفاتك العدوانية نحو أخيك! إن لم ترفق بأخيك الكبير فارفق بقلب أمك على الأقل!
- (منال).. لقد تحدثنا بتلك المسألة أكثر من مرة، لم يعد هناك ما يمكننا مناقشته بعد!
- لا تفعل يا (أحمد) أرجوك.. من أين جئت بكل تلك القسوة؟! كيف تقاطع أخاك؟! (أحمد)، إنك لست على قدم المساواة معه.. أنت في عمر ابنته! كيف تسيء لأخيك الذي أخبرتني بنفسك أنه هو صاحب الفضل عليك في كل شيء؟ أليس هذا هو نفس الرجل الذي نشأت في رعايته وكان لا يفرق بينك وبين ابنته في المعاملة؟! ومن أجل ماذا؟ من أجل حادث مأساوي لا ذنب له فيه؟!

- حادث مأساوي لا ذنب له فيه؟! أهكذا تصفين الأمر يا (منال)! مقتل عمي وابنه وحفيدته على يد صديق أخي المقرب حادث مأساوي لا ذنب له فيه؟! لقد ذبحوا أمام عينيه ولم يفعل شيئًا، وتأتين أنتِ الآن لتبرئيه هكذا بكل بساطة! لا تحكمي على شيء لم تتجرعي مرارة آلامه يا (منال)!
- لقد مر ثلاث سنوات على قطيعتكم يا أحمد...
- ولو مر العمر كله لن أغفر لـ (جمال) ما تسبب فيه من خراب لعائلتي!

نظرت إليَّ (منال) في صمت لم يقطعه سوى صوت رنات هاتفي، كانت أمي هي المتصلة.. نظرت إليها في قلق وكذلك بادرتني هي نفس الشعور.. الساعة لم تتعدَ السابعة صباحًا وأمي تتصل بي، لا بد أن هناك مكروهًا قد وقع..

- صباح الخير يا أمي! خيرًا، هل هناك مكروهٌ ما؟!
- مصيبة يا (أحمد).. لقد اقتحم أحدهم بيت (رامي) و(سُلاف) وأطلقوا عليهما النيران.. (رامي) قُتل يا (أحمد)!

***

الزمان: إحدى نهارات فبراير ٢٠٢٣.. في حدود الثامنة صباحًا.

المكان: إحدى مستشفيات مدينة القاهرة.

أشعر وكأن الزمان قد توقف، أرى أمامي صديق عمري جثة هامدة، يبدو الأمر وكأنه نائم.. إنه نائم.. هذا كل ما في الأمر!

أبي بجانبي يحتضنني ويبكي، وبقية عائلتي يقفون في الخارج بجانب غرفة ابنة أخي (سُلاف).. يحاول أبي انتزاعي من مكاني كمَن ينتزع شيئًا فوق طاولة.. أغادر الغرفة وعيني واقعة على جسد (رامي)، يدلف الطبيب أمامي إلى الغرفة، يغطي جسد صديقي ثم يخرج مغلقًا الباب خلفه، أصبح (رامي) الآن وحده تمامًا في غرفةٍ صغيرة باردة مع ثلاث رصاصات في القلب. صحبني أبي في يده كالطفل الصغير نحو المصعد..

- كن قويًا يا بني.. حاول أن تتماسك من أجل أخيك وابنته..
- كيف حدث هذا يا أبي؟!
- لا نعلم أي شيء عما حدث.. لقد جاءت إلينا قوات من الشرطة في حدود السادسة صباحًا لتخبرنا بأن (سُلاف) وزجها تعرضا لإطلاق

نار منذ حوالي ساعة، وقد أبلغ الجيران عن الأمر بعد سماع صوت طلقات مكتومة. هرعنا أنا وأمك وأخوك وزوجته إلى المشفى لنجد (رامي) قد توفي.. و(سُلاف) في العمليات!

- ماذا عن ابنتها؟ أين هي الآن؟
- ابنتها بخير.. كانت معنا.. كانوا كلهم معنا ليلة أمس، جاءت إلينا هي وزوجها وابنتها وأمضينا اليوم كله معًا. وعند المساء، رحلوا هم وبقيت (كرمة) معنا. أنت تعلم كم هي متعلقة بأخيك! يا الله يا ليتهم لم يرحلوا البارحة.. ليتهم ظلوا معنا! أصبحت المسكينة دون أب، و(سُلاف) لا نعلم شيئًا عن حالتها بعد..
- (جمال) هو المتسبب يا أبي! إطلاق النار له علاقة بـ (جمال).
- ماذا تقصد؟!

فُتح باب المصعد ولم نستطع أن نكمل حديثنا، وهناك وجدت (جمال) وزوجته وأمي وزوجتي أمام غرفة العمليات ينتظرون أي خبر عن (سُلاف)، كان الجميع يبكون باستثنائي أنا وأخي، كلانا يحتبسُ الدمع في مقلتيه ويحاول السيطرة على الموقف.

- توقفوا عن البكاء.. (سُلاف) ستكون بخير بإذن الله.. هي تحتاج للدعاء الآن وليس البكاء.
- حقًا، هي تحتاج للدعاء وليس للبكاء يا حضرة اللواء، و(رامي) لماذا يحتاج برأيك الآن؟! هل تتصور أن الجميع مُتبلد المشاعر مثلك؟! زوج

ابنتك قُتل يا هذا وابنتك بين الحياة والموت، وحفيدتك ذات الثلاثة أعوام فقدت أباها ولا نعلم مصير أمها حتى الآن! وأنت تقف بكل جبروت لتأمر أباك وأمك وزوجتك وصديقة ابنتك بأن يكفوا عن البكاء!

- (أحمد)، يعلم الله بما أشعر به الآن.. لا تزايد على ألمي، أنت لن تحب ابنتي أكثر مني وإن كنت عمها! لا أحد يحبها مثلي. ابنتي أنا التي تصارع في غرفة العمليات، وزوج ابنتي أنا الذي قُتل، وحفيدتي أنا التي يُتِمت وقُتل أباها ولا أعلم مصير أمها.. لذلك التزم الصمت وإلا أفرغت غضبي كله فيك الآن!

حاول أبي وأمي أن ينتزعاني من الوسط، بينما (جمال) أمامي هائج كذئب كشر فجأة عن أنيابه.

- بني، أرجوك راعي حالة أخيك الآن واصمت.
- أراعي حالة مَن يا أبي؟ أراعي حالة هذا القاتل؟! لقد تسبب ابنك الكبير في مقتل عمي وابنه وحفيدته وصديقه السفاح! ما أدراني أنه ليس وراء مقتل (رامي) وسُلاف الآن؟!

لم أدر بنفسي إلا وقد هوت على خدي لطمة كالمطرقة الحديدية.

- جمال، ماذا تفعل؟ توقف!

صرخت كلٌ من أمي وزوجتي وزوجة أخي، بينما تدخل أبي ليبعد جمال عني:

- (جمال)، توقف! أتضرب أخاك أمام أبيك؟! لا تفقد عقلك يا ولدي!
- مَن الذي تسميه قاتلًا يا كلب؟ مَن هو القاتل؟ أخوك قاتل! تتهمني أنا في قتل عمي وعائلته! وصديقي السفاح هذا أطلقت عليه النيران كي أحمي ابن عمنا! ولا يكفيك كل هذا فتزيد وتقول أنني من تسبب بمقتل ابنتي وزوجها الآن! إن كنت سأصبح قاتل أحدهم في تلك اللحظة لسوف يكون أنت.. اغرب عن وجهي، لا أريد رؤيتك!
- توقف يا (جمال).. قلت لك توقف نحن في مشفى!
- لن أتوقف يا أبي حتى يرحل من أمامي الآن..
- لن أذهب إلى أي مكان.. أنا أقف هنا من أجل عائلتي لا من أجلك أنت.. أنا عم هذه الفتاة وصديق زوجها. لن أبرح مكاني حتى أطمئن عليها، هل سمعت؟!

كنت أصرخ أمام (جمال) والدم يقطر من وجهي حينما بدأ هو يستعيد نفسه بالتدريج، فرأيت في عينيه فجأة شفقة الأب، وحنين الأخ القديم، وسكت كلانا ولم ننطق بعدها. وما هي إلا برهة حتى خرج الطبيب يعلمنا الجديد عن آخر التطورات.

- من منكم والد السيدة (سُلاف)؟
- أنا.. هل صارت أفضل؟
- لقد انتزعنا الرصاصات الثلاث من جسدها. أطلقت النيران عليها من يد محترف، الثلاثة في مكان واحد والمسافة بينهم وبين القلب بسيطة

للغاية. السيدة (سلُاف) على قيد الحياة ولكنها نزفت كثيرًا، والحالة لم تخرج من مرحلة الخطر، لن نعلم متى تفيق منها، فلندعو الله أن تتحسن في أقرب وقت. الزيارة الآن ممنوعة، إن أردتم رؤيتها سيكون من خلف زجاج غرفة العناية.

انهارت أمي وزوجتي ووالدة (سُلاف) أكثر عند سماع كلمات الطبيب، أما أنا وجمال وأبي فاكتفينا بالصمت.

- أيها الطبيب، من فضلك هلَّا عالجت وجه أخي، لقد تعرض للطمة شديدة وأخشى أن تؤثر عليه..
- بالطبع، لا تقلق.. تفضل معي يا سيدي للعيادات الخارجية.

وذهبت مع الطبيب وعيني معلقة بعيني (جمال).

جلست في العيادة يضمد الطبيب جراح وجهي المتورم وأنا غير عابئ بشيء، أفكر في رامي صديق العمر، زوج ابنة أخي. كبرنا معًا وتخرجنا من نفس الكلية وتزوج علي يدي.. والآن يرحل من أمامي فجأة ودون سابق إنذار تاركًا إياي للحسرة تحرق روحي. أتذكر آخر كلماته لي، ترجاني أن أذهب إلى بيت أبي ولكني رفضت..

- "إنه أخوك يا (أحمد) لا تتركه هكذا.. أيعقل أن تقاطع بيت أبيك كي لا ترى أخاك! إن كنت تقاطع أخاك لسببٍ ما.. فهلا أخبرتني ما ذنب أبيك وأمك!".

- ذنبهم أنه يقيم معهم..
- سأذهب غدًا مع (سُلاف) لزيارة العائلة.. احضر أنت وزوجتك.
- لن أحضر، ولا تناقشني في أمر أخي مرة أخرى إن كنت تود أن نبقي على صداقتنا، لقد خسرت أخي وفي إمكاني خسارة صديق إذا لزم الأمر.

كان هذا آخر حوار بيننا.. هكذا ببساطة وهدوء تركت ورائي صديق العمر لأنه حاول إصلاح علاقتي بأخي. لم أكن أعلم يا الله أنها ستكون المحادثة الأخيرة.. لم أكن أعلم!

- سيد/ أحمد، هل أنت بخير؟

قطع صوت الطبيب حبل أفكاري ونقلني للواقع مرة أخرى، ووجدت (جمال) يجلس أمامي لا أعلم متى أتى!

- كنت أخبرك أنك تعاني من تورم بالوجه جرّاء الضربة التي تعرضت لها. لقد وصفت لك مجموعة من الأدوية، وإذا شعرت بأي ألم عد إلينا مرة ثانية.
- دائي بروحي لا بجسدي يا سيدي..
- معافى بإذن الله.

قالها لي الطبيب وهو يبدو عليه التفهم ورحل. بقينا أنا و(جمال) وحدنا في الغرفة. ما إن رحل الطبيب حتى وجدته يقترب ليجلس بقربي على سرير العلاج:

- أرني وجهك!
- لا تهتم، جرح بسيط، أذهب لابنتك فهي تحتاجك أكثر مني.
- كلاكما ابناي، أم تُراك نسيت!

كانت الدموع تترقرق في عيني (جمال)، وبهدوء تحسّس موضع الضرب.. ثم بدأ يبكي..

- أنا لم أضربك ولا مرة واحدة في حياتي.. كيف أفعلها وأنت في الثلاثين! سامحني يا بني..

تبادلنا نظرات الألم والندم في صمت، ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أبكي نفسي وصديقي في حضن (جمال).

***

الزمان: ديسمبر ١٩٩٠.

المكان: محافظة المنيا.

يقف (جمال) في المشرحة أمام جثة خطيبته غير مدرك لما يحدث من حوله، أبوه وأمه يبكيان في صمت مؤلم، و(سليم) يقف بجوارهما متأثرًا لا يدري ماذا يصنع. وفي نهاية الردهة يقف (عادل الذهبي) ووالده (حسين) غاضبين من مقتل الفتاة.

حسين:

- كيف حدث هذا؟ نحن لم نتفق على جريمة قتل يا (عادل)؟ كيف تتصرف من عقلك، لقد اتفقنا أن تختطفها وتهددها لا أن تأمر بذبحها!

عادل:

- أنا لم أفعل شيئًا يا أبي.. الذنب كله يقع على عاتق الحمقاء (كوثر)، لقد اتفقت معها على خطف الفتاة وإغراءها بالمال كي ترحل من هنا وتترك (جمال)، ولكنها وضعتنا في مصيبة لا مخرج منها أبدًا!

حسين:

- الذنب كله ذنبي لأنني قد طاوعتك يا أحمق أبنائي! كان يجب أن أعلم أنك غير مهيَّأ لأي عمل يحتاج لتفكير وتدبير. كيف أعول عليك في أمرٍ مثل هذا؟ الذنب كله ذنبي أنا!

عادل:

- صدقني يا أبي لا ذنب على أحدٍ سوى من قتل.. إلى الآن نحن لا نعلم التفاصيل، كل ما أنا متيقن منه هو أن الفتاة كانت في عهدة (كوثر القاضي)، الباقي لا علم لي به!

ينظر حسين وراءه فيرى (كوثر) واقفة على باب المشفى تبتسم كالبلهاء!

حسين:

- يا الله! ما الذي أتى بتلك الحمقاء إلى هنا .. (عادل)، اصرفها من هنا فورًا قبل أن تحدث كارثة!

يراها (عادل) تقف على باب المشفى فيهرول إليها مسرعًا:

- كيف تأتين إلى هنا يا مجنونة؟ أهذا ما اتفقنا عليه؟ تقتلين القتيل وتمشين في جنازته!

كوثر:

- ماذا كان بإمكاني أن أفعل؟ الفتاة هي مَن تسببت بمقتل نفسها.. لقد هربت مني ورآها الحي كله. لولا خادمتي (هدى) و(هالة) قد

أمسكن بها لكانت وصلت إلى بيت أبيك وأخبرت أخاك وولده بكل شيء، وكان ينبغي عليَّ أن أتصرف سريعًا وإلا ضاعت هيبتنا في المدينة!

عادل:

- ماذا تقصدين أيتها الملعونة؟ لا تقولي أنكِ ذبحتيها أمام سكان الحي بأكمله؟!

كوثر:

- بلى، فعلت.. خيرتها إما المال وإما الموت، واختارت هي الثانية!

عادل:

- لعنكِ الله.. ارتكبتِ جريمة قتل أمام أعين حي سكني بأكمله وتأتين الآن إلى المشفى بكل جبروت كأن الأمر لا يعنيكِ! كيف فعلتِ هذا؟ إنها فتاة صغيرة.. أنا لم آمركِ بهذا يا ملعونة، كل ما طلبته هو إخافة الفتاة فقط حتى تترك ابن أخي ليتزوج هو وابني ابنتا شريكنا في العمل.. لم أقل لكِ اذبحيها يا مجرمة!

كوثر:

- لا تتصنّع الشرف أمامي.. أنت من بدأ هذه اللعبة وأنا تورطت فيها من أجل ما بيننا ولأنني أحبك. والآن تلقي عليَّ العبء كله

وحدي! حسنًا، لن ألومك وأنت في ثورة غضبك، ولكن إن كنت تخشى وشاية سكان الحي فلا تجهد نفسك عبثًا. أنا أعلم بجيراني منك، إنهم جماعة من الفقراء والحثالة لا يقدرون على رفع صوتهم عليَّ، ما بالك بإبلاغ الشرطة عن ارتكابي لجريمة قتل! إن الفقر والجهل يا عزيزي يخرس ألسنة أكثر الشبان فتوة وجرأة، فسكان الحي الصامت لا يتحدثون أبدًا!

عادل:

- اغربي عن وجهي قبل أن أرتكب إثمًا.. وإلا...

كوثر:

- وإلا ماذا؟ وأي إثم سترتكب أسوأ مما ارتكبت يا ابن الأكرمين! على كل حال لا تقلق، لقد جئت حتى أهنئك بخبرين أحلى من بعضهما؛ الأول هو إزاحة عقبة (بسمة) من طريقك، وبهذا ستزوج الفتيان لبنات شريكك.. والثانية أنك ستصبح عما قريب أبًا للمرة الثانية!

عادل:

- نعم.. بماذا تفضلتِ؟!

كوثر:

- ما بك هل طُرشت فجأة؟ أقول أني حامل.. ألم تفهم؟ هيا، أنهِ زيجة الفتيان سريعًا حتى يتسنَّى لنا الزواج قبل أن ينكشف أمرنا.. فأنا حامل في شهري الثالث!

عادل:

- عن أي زيجة تتكلمين أيتها الشيطانة؟ أتلفقين عليّ لعبة جديدة؟ ابن أخي يعاني ألم الفقد وأنتِ تأتين إليّ تتصنعين الحمل حتى أتزوجك!

كوثر:

- أنا لا أتصنع شيئًا، أنا في الحقيقة حامل منك.. وأنت وعدتني بالزواج.. تأتي الآن لتتنصل من وعودك؟!

عادل:

- وعدتكِ قبل أن تقتلي فتاةً بريئة.. أنا لا يمكنني الزواج من قاتلة. اذهبي أنتِ وطفلكِ إلى الجحيم.. هيا، لا أريد رؤيتكِ مرة أخرى!

أنهى (عادل) كلماته و دفع (كوثر) بيديه على قارعة الطريق، وما إن التفت حتى وجد ولده (سليم) يقف أمامه وينظر إليه في ذهول.

***

الزمان: *فبراير* ٢٠٢٣.

المكان: *منزل عائلة الذهبي.. مدينة القاهرة.*

ذهبنا جميعًا إلى بيت أبي، ها أنا أدخله الآن في صحبة (جمال)، ورغم الألم الشديد الذي ينتاب الجميع إلى أنني رأيت في عيني أبي نظرة رضاء عابرة عن صلح أبناءه، حتى وإن كان الصلح قد تم ظاهريًا من أجل حادث أليم! جلسنا جميعًا ووقف (جمال) يُعلن عن خطته كما اعتاد أن يفعل في أزمات العائلة..

جمال:

- تقرير الطب الشرعي الخاص بـ (رامي) -رحمه الله- سيصدر قبل صلاة الظهر وستقام الجنازة بعد الصلاة بإذن الله. لقد اتصلت بعمِّه وأخبرته وسيحضر الآن لترتيب أمور الجنازة معنا. لقد اتفقت معه أن تتم مراسم الدفن في مقابرنا.
- تفعل ذلك حتى تضع (سُلاف) بجانبه قريبًا!

نطقتها غادة وهي تنظر في حسرة إلى زوجها الذي تعلم كيف يفكر جيدًا، بينما تظاهر هو بالهدوء وأخبرها أنه يفعل لأن مقابر عائلة (رامي) قديمة ولا تتحمل

فردًا جديدًا. ثم أكمل حديثه بنفس الهدوء المصطنع. أما بالنسبة إلى (سُلاف) فتقرير إصابتها يتم تجهيزه الآن لبدء التحقيقات.

- ليس هناك جدوى من جلوسكم في المشفى. سأظل أنا و(غادة) بجانب ابنتنا حتى تستفيق، ارتاحوا الآن حتى موعد الجنازة، وطبعًا لن نخبر (كرمة) بأي شيء. لا أريد للفتاة أن تصاب بصدمة عصيبة، سنخبرها أن والديها مسافران الآن. ورجاءً، لا تظهروا أي مقدار ولو ضئيل من الحزن أمامها.

كنا جميعا في حالة يرثى لها عندما أنهى (جمال) كلماته واتجه للخارج، بدا لي أن هناك شيئًا ما مختلف في مظهره، شيء يوحي بالخطر، وسرعان ما سيتبيّن لي صحة توقعاتي.

مر كل شيء سريعًا.. تجهيز جنازة (رامي)، السفر إلى المنيا، حضور عمه ومعارفنا وأصدقائنا. كل شيء مر، ولم يتبقَ لنا سوى انتظار تحسن (سُلاف).

***

الزمان: يناير ١٩٩١.

المكان: محافظة المنيا.

بيت الذهبي يسوده الصمت والترقب. انتهى (جمال) وابن عمه (سليم) من اختبارات نصف العام الدراسي وعادا إلى المنزل سويًا، لكنهما عادا كأغراب لا كإخوة. (جمال) يعلم يقينًا أن عمه وجده هم مَن تسببوا في مقتل خطيبته (بسمة).. كما يعلم أن (سليم) يخفي أمرًا ما خوفًا على والده. ولكن مَن قام بارتكاب الجريمة نفسها؟ لا أحد يعلم.

منذ عودة (جمال) من كلية الشرطة وهو ملازم لغرفته، لا يظهر لأحد ولا يتكلم مع أحد. ووالداه يشعران بألمه، ولكن ليس بوسعهما فعل شيء، خاصةً بعد أن قيدت الجريمة ضد مجهول ولم يتبين أحد حقيقة الحادث. حاول (سليم) أن يتكلم معه مرارًا إلا أنه يرفض الاستماع إليه، لذلك بدأ في محادثة عمه وزوجته. كان (سليم) يعلم أنهما حكيمان وسيساعدانه في إصلاح علاقته بـ (جمال).

سليم:

- عمي، أمي، كلاكما تريان الحالة الصعبة التي وصل إليها (جمال) و(سالم). (جمال) يغلق على نفسه غرفته منذ نحو الأسبوع، و(سالم) معتكف في بيته لا يقابل أحد ولا يعلم أحد عنه شيئًا. لا يمكننا تركهما هكذا!

يوسف:

- وماذا يمكننا أن نفعل يا ولدي؟! ما مر به كلاهما لم يكن سهلًا. فقد (جمال) حبيبته و(سالم) توأمه وآخر من تبقى له من عائلته. نحن لا نملك سوى الدعاء لهما أن يزيل الله ما في أنفسهما من آلام ويلهمهما الصبر والرضا بقضاء الله.

نادية:

- الأمر ليس متعلقًا فقط بمقتل (بسمة) رحمها الله يا ولدي. فأنت تعلم أن (جمال) متيقن أن مقتلها جاء على يد أبيك وجدك، وأنت بنفسك أخبرتني أن الفتاة جاءت تخبر (جمال) بما سمعته من مخطط لإخفائها. من الطبيعي ألا يستطيع الفتى تجاوز هذا كله. أنا وأمك نعلم أن لا شأن لك ولكني أعول على رجاحة عقلك في تحمل آثار جرح أخيك حتى يشفى!

جمال:

- لا أخوة لي.. وأنتِ لم تنجبي غيري من الأبناء يا أمي!

سليم:

- حمدًا لله أنك بخير. لقد كنا قلقين عليك. أنا أعلم أن لك كامل الحق في الغضب والألم، ولكن أرجوك يا (جمال) لا تعزل نفسك هكذا.. أنا وعمي وأمي كنا نتشاور في...

جمال:

- (سليم)، هل أنت أحمق أم تراك أصبت بفقدان مفاجئ للسمع؟! أنت لست بأخي، وأمي ليست أمك. لقد ماتت أمك بعد ولادتك ومن تقف الآن هي أمي أنا!

يوسف بنبرة حادة:

- (جمال)، توقف، لا تتمادى أكثر. ما ذنب (سليم) بما حدث لك؟ إنه مثلك تمامًا. كان معك وفي ظهرك طوال الوقت، وأيد شهادتك في محضر الشرطة ضد أبيه! ماذا يفعل كي يثبت لك ولاءه أكثر؟!

نادية:

- (جمال)، أرجوك توقف، (سليم) لا شأن له، كلاكما أبنائي.. لقد أرضعتكما سويًا ورأيتكما تكبران أمامي. لا تسمح للغضب بأن يفقدك رشدك يا بني!

كانت (نادية) تحاول احتواء ابنها بالكلمات، بينما الثورة داخله تشتعل وتعميه عن رؤية أي شيء. وما لبثت أمه تنهي كلماتها حتى انطلق يصرخ في أرجاء قصر (الذهبي).

جمال:

- (عادل).. يا سيد (عادل) أين أنت أيها السفاح؟

كان (جمال) قد وصل إلى أقصى حالاته من الغضب، ولم يستطع أبواه و(سليم) إيقافه. وحضر على إثر صراخه عمه وجده.

عادل:

- أنا هنا يا (جمال).. عمك هنا.

حسين:

- يا ولدي لا تفعل هذا بنفسك! نحن نقدر ما أنت فيه من ألم ولكنك رجل و...

جمال:

- والرجال مسؤولون عن سلامة ذويهم، أليس كذلك يا جدي؟ أليس هذا ما أخبرتني به وأنت تعلن لي موافقتك الوهمية على ارتباطي بـ (بسمة) الفتاة الفقيرة المكافحة التي لم ترض بها. وأخبرت ولدك أنك ستنتهي من أمرها وإن كلفك هذا إخفاءها من على وجه الأرض.. لقد سمعتك يا جدي، سمعتك وأنت تخبر ولدك أن يتعامل معي بسياسة وحذر. أتعلم أكثر ما يكسر قلبي في الأمر؟ أنني آمنت وعدك وصدقتك حينما تحدثت معي في صباح اليوم التالي وأخبرتني أنك وافقت على خطبة الفتاة التي أحبها، وأنك لن ترغمني على شيء وأن عمي ولد طيب لن يخرج عن رأي

أبيه! كيف فعلت بي هذا؟ أنا حفيدك الذي يحبك، كيف تحرق روحي يا جدي!

حسين:

- يا ولدي، أنا أقدر ألمك.. ولكن صدقني أنا وعمك لم نأمر بقتل أحد. عد لرشدك يا بني ولا تخسر كل شيء! سأعوضك يا (جمال)، أقسم بربي وما أعبد إنني سأعوضك حتى ترضى! أنا وعمك لم نأمر بقتلها يا ولدي!

جمال:

- لا تقسم بالله.. الله بريء منك ومن ولدك. أنتم من أمرتم بإخفائها! قد لا تكونوا أمرتم بالقتل فعليًا لكنكم تسببتم فيه.. ومن أجل ماذا؟ أن أتزوج ابنة شريككم!

حسين:

- لم أعد أريد هذا يا بني.. لن نرغمك على شيء.. أقسم لك!

جمال:

- أنا مَن يقسم لك أنني سأنتقم منك ومن ولدك مهما كلفني الأمر.. ومنذ الآن أنت وهو أعدائي حتى نهاية العمر.

حسين:

- يبدو أنك لن تعود عما في نفسك من شر! حسنًا.. إذا لم يعد لك مكانًا بيننا كما تقول اترك منزلي الآن وارحل!

جمال:

- سأتركه الآن، لكني سأعود إليه لاحقًا. ثأري منكم بدأ لتوه.. ولن ينتهي، ومنذ اليوم ثلاثتكم أعدائي. لا أنت بجدي ولا ولدك عمي ولا حفيدك أخي. وحذاري أن تقترب مني في الكلية، أنا أحذرك حرفيًا يا (سليم)!

كان الجميع مذهولون مما يحدث. لم يتوقع (حسين الذهبي) أن ينقلب عليه حفيده لتلك الدرجة، وازداد الأمر سوءًا عندما قرر (يوسف الذهبي) وزوجته الرحيل مع ولدهم. وصار قصر الذهبي مغلقًا على الحج (حسين) وولده (عادل) وحفيده (سليم) وبعض الخدم.

***

يجلس (جمال) في المشفى بجانب ابنته، ينظر إليها وهو ممسكٌ بيدها وقلبه يعتصره الألم، لا يعلم مَن فعل هذا ولماذا فعل، ولكن كل ما يشغل باله الآن هو عودة ابنته إليه مرة أخرى. لطالما كان (جمال) فخورًا بابنته وبتميزها الدائم في عملها؛ استطاعت أن تصير طبيبة متميزة وكاتبة معروفة، حتى بدا له أن ما لم يحققه في دنياه ستفعله فتاته عوضًا عنه. يبكي (جمال) ولا يعلم كيف يتصرف،

لأول مرة منذ وقتٍ طويل يشعر بالمعنى الحقيقي للعجز. ابنته أمامه تصارع من أجل حياتها، وحفيدته الصغيرة لا تدري أن أباها لقي حتفه، وأن أمها تحتاج لمعجزة حتى تعود إلى أحضانها مرة أخرى.

يتذكر حديثه ليلة أمس مع ابنته، يتذكر انفعاله الشديد عليها عندما طالبته بمصالحة عمها، يتذكر وهو يعض أصابع الندم متمنيًا لو يعيد عجلة الزمن إلى الوراء ويمحي ما قاله لها، ولكن هيهات أن يقدر، فلا قدرة له الآن سوى تذكر كلماته.

***

سُلاف:

- أبي، كنت أريد أن أتحدث معك بخصوص عمي. ما يحدث بينكما أصبح لا يحتمل، ما فعلته به دمّره يا أبي!

جمال:

- وما الذي فعلته أنا؟ هل أنا من قاطعته ورفضت زيارة منزل العائلة كي لا أراه؟! هو من فعل يا ابنتي وليس أنا.

سُلاف :

- (أحمد) مجروح مما حدث يا أبي، في الحقيقة جميعنا مجروحون مما حدث، مقتل ثلاثة أفراد من عائلتنا بتلك الطريقة لم يكن بالأمر

الهيّن على قلوبنا، وأنت تعلم كم كان (أحمد) على علاقة وثيقة بجدي (عادل)، وكذلك كنت أنا و(جميلة) -غفر الله لهم جميعًا- ومقتلهم بتلك الطريقة وعلى يد صاحب عمرك كسر شيئًا في نفوسنا لا مجال لإصلاحه مرة أخرى!

جمال:

- ما بالكِ تتكلمين عن الأمر وكأن والدكِ حجر لم يشعر بشيء! يعلم الله كم حاولت أن أنقذ (جميلة) و(سليم) رحمهما الله، حتى عمي عندما جاءني نبأ وفاته وحيدًا بأزمةٍ قلبية أثناء التحقيقات آلَمني قلبي عليه، ولكن ما ذنبي أنا؟! لمَ لا يفكر أي ممَّن حولي فيما أصابني أنا؟ أنا من فقدت في سن صغيرة خطيبتي، وأنا أيضًا من فقدت عمي وابن عمي الذي كان بمكانة الأخ في نفسي، أنا من كنت معه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة في هذه الدنيا، وأنا من سقطت على الأرض ممسكًا بقلبي وقتما رأيت ابنة أخي مذبوحة وملقاة وسط الطريق، وأنا من سيمضي بقية عمره مع آلامٍ شديدة ناتجة عن تليف في الكبد، وأنا أيضًا من أطلق النيران على صديق عمره في سويداء قلبه كي يحمي ما بقى من عائلته. أنا كل هؤلاء يا عزيزتي، ولكن أتعلمين الفرق بيني وبين الآخرين! أنني لم أكن قادرًا يومًا على إظهار معاناتي مثلهم. أنا كسير القلب مثلهم لكني غير بارع في الوصف.

سُلاف:

- هناك فارق آخر يا أبي، جانبك من المسؤولية!

جمال:

- عن أي مسؤولية تتحدثين؟!

سُلاف:

- مسؤولية موت من حولك، حسب روايتك للأمر فقد جاءت إليك خطيبتك -رحمها الله- تخبرك أنها استمعت إلى عمك وجدك وهما يخططان لإيذائها، وأنت أيضًا من اتَّخذ قرار السفر وتركها وحدها في مواجهة من لا طاقة لها بهم، وأنت من عدت متأخرًا لنجدة عمك وأخيك وابنته، وأنت أيضًا من رافق قاتلًا مختلَّ العقل فاسد النية لأكثر من ثلاثين عامًا. صحيح أن (أحمد) مخطئ، ولكنك تتحمل أيضًا الجزء الأكبر من الخطأ!

جمال:

- أنا لا أتحمل جزءًا من الخطأ، بل هذا ما تراه غبية مثلك. من أنتِ حتى تحكمي عليّ؟ من أنتِ؟! مجرد فتاة مدللة لا تفقه شيئًا ولا قيمة لها بين العالمين تقول لي ماذا أفعل وماذا لا أفعل! أين كنتِ وقتما كنت أقاسي وأعاني الويلات وحدي! من أنتِ يا (سُلاف)؟ في الصباح طبيبة لا قيمة لها وسط آلاف من أقرانها، وفي نهاية اليوم

تصبحين كاتبة مرفهة لا يقرأ لها أحد! وطوال الوقت أم غير قادرة على تحمل عبء تربية ابنة وحدك! أنتِ لا شيء يا (سُلاف)، وقبل أن تتجرأي وتُحملي أباكِ أوزارًا قديمة، انظري إلى نفسكِ أولًا! والآن اغربي عن وجهي، لا أريد رؤيتكِ ولا رؤية الأحمق عمك. أتظنون أنفسكم مركز الكون؟ أنا قادر على الحياة بدونكم، وإن شئتِ قاطعيني مثله!

***

يجلس (جمال) وحده الآن متذكرًا حواره القاسي مع ابنته، ويعض أصابع الندم. تتراءى أمامه نظراتها الحزينة والدموع المترقرقة في مقلتيها وهي تخرج صامتة من غرفة مكتبه، يراها من وراء الباب وهي تحتضن ابنتها وترحل عن البيت تاركة إياها أمانة لديهم لليلة واحدة، وهي التي لا تعلم أن الغياب سيطول، تاركةً وراءها كل هذا في سكون وألم الجريح المخذول ممن أحبَّه.

لو يعود الوقت ويمهله فرصة، لم يكن ليتركها ترحل كسيرة القلب هكذا، محملة بتصور خاطئ عن رؤية أبيها لها. يتمنى لو أنها تفيق أمامه فيخبرها أن كلماته ليست حقيقية، وأن الشيء الحقيقي الوحيد أنه يحبها، وأنها ليست شيئًا تافهًا كما أخبرها، كان يود لو تستيقظ الآن ليعلمها كم يراها طبيبة مميزة، وكاتبة رائعة، وأم متفانية، وزوجة صالحة، وابنة لا مثيل لها، كان يود لو أنها تعود إليه كي يتمكن من إخبارها بكل تلك الحقائق، والأهم من ذلك أن يعترف إليها بأكبر حيله، وهو أنه غير قادر على الاعتراف بتعرضه للأذى. كان يود لو يحدثها أنه عاش عمره يتأذّى

ممن حوله، من الأشياء والأشخاص والأفعال، وذات يوم قرر أن يستيقظ وهو عازم على ألا يشعر مرة أخرى، لقد أمضى عمره وهو يعاني مرارة الإيذاء ممن حوله. لم يستطع والداه حمايته، أحباه لكنهما لم يقدرا على حمايته، تركوه وحده في مواجهة مع نفسه، وإنه لا يوجد ما هو أكثر شرًا من أن يواجه المرء نفسه!

لو أنها استيقظت الآن، لأخبرها بكل تلك المرات التي عاشها وحيدًا وسط أهله، سيخبرها بالمعنى الحقيقي للألم والوجه الخفي للكلمات، سيخبرها أن صرخاته هي اعتراف بالأذى ومكابرته اعتراف بالألم، وأن نظرات الغضب الكامنة في عينيه التي وجهها لها البارحة كانت اعترافًا بصحة رأيها. سيخبرها كم كان فخورًا بها طوال حياته، عن شعوره بالأمان في أول مرة حملها بين يديه، وعن شعوره في أول مرة نطقت فيها كلمة (أبي)، وعن مقدار فرحته في كل يوم يراها تكبر أمام عينيه. لو أنها تفيق سيحدثها عن كواليس ليلة زفافها، وكيف أنه لم يقدر على النوم بينما هي في غرفتها تحضر فستان الزفاف كي ترتديه صباحًا. سيخبرها كم كان يود لو يهرب معها بعيدًا في الصباح حتى لا ترحل عنه مع رجل آخر غريب وإن كان زوجها الذي تحبه. سيشرح لها كم بغض (رامي) للحظات وتمنى لو اختفى وترك له صغيرته التي ما زالت تنير بيته وحياته، وسيؤكد لها كيف أن قلبه كاد أن ينشطر إلى نصفين وهو يسمعها تصرخ أثناء ولادة حفيدته (كرمة)، سيصف لها لحظة اختباره لمشاعر الجد لأول مرة، وسيستفيض في شرح معنى حب الحفيد أكثر من الابنة، وسيعبر لها بكل صراحة عن أنه لم يستطع أن يحب تلك الملاك الصغيرة أكثر منها، وكيف أنه لم يتفهم حديث الأجداد أمامه عن معزة

الحفيد الزائدة عن الابن. سيقول لها أن محبتها هي التي وصلت عنان السماء في قلبه عند وصول كرمة، وسيروي لها كيف يفرح لرؤية تلك الفتاة لأنها فقط نسخة صغيرة منها.

فقط لو أنها تنهض الآن -حينها فقط- سوف يفعل أي شيء وكل شيء من أجل أن تغفر له كلماته الأخيرة القاسية معها، لو أنها تتكرم عليه وتعطيه فرصة أخرى يصبح من خلالها أبًا جيدًا، لو أنها لا تكسر قلبه وتفتح عينيها، حينها فقط سيتمكن من فعل أي شيء وكل شيء. وفي تلك اللحظة، تبين لـ (جمال) أن الخوف كل الخوف من ألا تعطيه تلك الفرصة وترحل تاركة إياه مع ذكرى حديثهم الأخير، فلا يقدر هو على محو الذكرى الأليمة ولا تعرف هي كم أحبها أباها.

وبينما تدور في جنبات عقله كل تلك الأفكار، قبَّل (جمال) يد ابنته ووضعها على قلبه معترفًا لنفسه بأهم اعتراف في عمره كله، وهو أنه لم يعرف معنى الألم الحقيقي بعد، لم يعرف معنى ألم فقد الابنة.

***

الزمان: *فبراير* ١٩٩١.

المكان: *كلية الشرطة*.

يجلس (جمال) وحيدًا في إحدى ممرات الكلية يراجع محاضراته، بينما (سليم) ينظر إليه من بعيد في حزن وحسرة، وبالرغم من أنه يعلم أن (جمال) لم يعد يطيق رؤيته، إلا أنه يذهب إليه بقلب حانٍ ونفس سمحة آملًا في عودة المياه إلى مجاريها مرة أخرى.

سليم:

- صباح الخير يا (جمال).

يرفع جمال رأسه في لا مبالاة ناظرًا إلى (سليم) نظرة باردة لا معنى لها، فيستكمل (سليم) حديثه متغافلًا عما يبديه (جمال) تجاهه:

- كيف حالك؟

جمال:

- كما تراني، أدرس أمامك.

سليم:

- أنا لا أسأل عما تفعل، أنا أسأل عن أحوالك يا أخي!

ينظر إليه (جمال) مرة أخرى والانفعال باديًا عليه تلك المرة، ينظر إلى أوراقه وأقلامه مرة أخرى ثم يتركها على كرسي صغير بجانبه ويبدأ في الحديث:

- (سليم)، قلت لك أكثر من مرة أننا لسنا إخوة، أنت ابن السيد (عادل الذهبي)، عمي الذي يعلم الله كم أبغضه وأتمنى زوال النعمة من بين يديه اليوم قبل الغد.

سليم:

- كن رحيمًا يا (جمال)، لا تفعل هذا! صحيح أن أبي أخطأ في حقك ولكن أنت لا تملك بينة على قتله (بسمة) -رحمها الله-، أنت شاب متدين وتخاف الله، أولى بك أن تخشى ظلم ذوي القربى والأرحام!

جمال:

- وهل كان أباك رحيمًا معي يا ابن أبيك! أي بينة تريد أكثر مما سمعته في محطة القطار؟!

سليم :

- وقد شهدت معك يا (جمال)، قلت حقيقة ما حدث وخسرت أبي في سبيل شهادة الحق، ولكن مقتل (بسمة) لا يعلم من وراءه إلا

رب العالمين. أرجوك فكر في الأمر وعُد إلى بيتك وعائلتك مرة أخرى!

جمال:

- تعايرني بشهادتك! قل لي يا هذا كيف عاقبك أبوك على شهادة الحق؟ هل ضربك أم أهانك يا صغيري! يا لك من طفل أبلَه لا شخصية له ولا عقل! لو كان لي خطأ في هذه الدنيا فهو أنني اعتبرتك أخًا لي ذات يوم. والآن، ارحل من أمامي، وليكن تعاملك معي في أضيق الحدود حتى تنتهي سنوات الكلية، ومن بعدها فليقضي الله أمرًا كان مفعولًا، و لا تقل لي كلمة عائلتك مرة أخرى، لا عائلة لي سوى أبواي. وأخبر أباك اللحوح اللجوج الأحمق أن يخشى صبري، فقد نفد.

كان (سليم) ينظر والدموع تغالبه، فقد أسقط في يديه، ولم يعد يملك سوى الرحيل والصمت.

***

الزمان: **فبراير** ٢٠٢٣.

المكان: *أحد مستشفيات القاهرة*.

يجلس (أحمد) على الكرسي المواجه لزجاج غرفة العناية حيث ترقد أمامه ابنة أخيه في حالة سكون، ينظر إليها بألمٍ والدموع حبيسة بين جفنيه، غير قادر على البكاء، ليته يقدر لكان الأمر أسهل بكثير. يتذكر قول أبيه الدائم عن فائدة البكاء وكم هو رحمة من الله عز وجل لعباده الضعفاء، لكن وحسرتاه! إنه لا يملك تلك الرحمة الآن. يتذكر مقتل (جميلة) ابنة أخيه وابن عمه سليم، ومقتل (سليم) هو الآخر بعد ساعات من مقتل ابنته، وحسرة عمه والنوبة القلبية التي عصفت به أثناء التحقيقات، يتذكر مصير الثلاثة ويبكيهم، ويبكي نفسه معهم. ثلاثتهم ماتوا وحيدين، مغدورين بلا ذنب سوى أنهم أقرباء لـ (جمال الذهبي). يتذكر نفسه وهو مسافر من أجل إتمام الدراسات العليا، يعود بذاكرته حين اتصلت به أمه منذ ثلاث سنوات وهي تبكي لا تعرف كيف تبدأ الحديث. تمامًا كما فعلت وقت اتصالها به لإخباره بأمر (سُلاف) و(رامي).

"يا بني، لقد تعرضت أسرتنا لحادث أليم، فقدنا عمك وولده وحفيدته".

يتراءى أمام عينيه كيف توقف الزمن وقت علم، لم يسأل وقتها كيف حدث الأمر، وبما يهم كيفية حدوث الكارثة وإن كانت قد وقعت فعليًا، يتذكر حزنه وكمده ورميه للهاتف، يتذكر نفسه وهو يخرج مهرولًا للطرقات في أواخر ديسمبر منذ ثلاث سنوات. يتذكر كيف كانت السماء تبكي معه، ويتذكر نفسه وهو يجلس على أحد الأرصفة لا يملك شيئًا سوى النحيب والألم. كان قد ودَّع عمه قبيل سفره، قضى معه عدة أيام أخبره خلالها عن أحلامه وتوقعاته، فهو يريد أن يصير محاميًا لامعًا، كما أنه يريد أن يعمل بالسلك الجامعي، فلطالما كان شغوفًا بتدريس القانون، وما كان من عمه إلا أن ينظر إليه ويضحك بمرارة في كل مرة، حتى سأله عن سبب ضحكاته المتتالية دون تعليق، فأجابه إجابة غريبة سيفهم معناها لاحقًا.

عادل:

- اسمعني جيدًا يا (أحمد) أنت ابن أخي وقطعة من روحي ويعلم الله كم أحبك.. وأصدق كل كلمة تعنيها وكلي يقين بأنك ستحقق أحلامك ذات يوم.. ولكني لن أرى تلك الأحلام وهي تزدهر .. أنا أشعر بقرب أجلي يا بني.

أحمد:

- عمي، لا تقل هذا رجاءً، أطال الله عمرك، لمَ تتكلم على هذا النحو؟

عادل:

- أتكلم من وحي الواقع يا ولدي، لم تعد قدماي تحملاني حتى، صرت قعيدًا إلى حدٍ كبير، هذا غير قائمة الأمراض الطويلة التي لا تنتهي، أنا لا أقول هذا كي أحزنك، أنا فقط أريد تحذيرك مما هو قادم!

أحمد:

- ما هو القادم يا عمي؟!

عادل:

- العقاب على ما اقترفناه من آثام، سواء أنا أو (جمال). اسمعني يا ولدي، سأخبرك شيئًا، فيما مضى، وقتما كان عمر أخيك وابن عمك يقترب من الثامنة عشر، فكرت أنا وأبي أن نزوّج الأولاد لبنات شريكنا السيد (فاضل)، واتفقنا على هذا حتى لا يضيع مالنا إذا مات الرجل وتزوجت فتياته من رجال لا نعلم عن نواياهم شيئًا، ولكن كانت هناك عقبة واحدة تقابلنا، وهي أن (جمال) كان يحب تؤام صديقه (سالم). لذلك فكرت أنا وأبي أن نعطي الفتاة وأخيها مبلغًا كبيرًا نظير رحيلهم عن المدينة. لم أقتلها ولم أأمر بقتلها يا ولدي، أقسم لك! لقد ارتكبت إثمًا بذاك التفكير وأدعو الله أن يغفر لي، ولكن (جمال) أيضًا ارتكب آثامًا كثيرة، لا أحد بريء يا

ولدي.. لا أحد. كل ما أخشاه في هذه الدنيا هو أن يُعاقب (سليم) وابنته (جميلة) بجرمي، وأن تعاقب أنت و(سُلاف) بجرم أخيك وأبيها. (جمال) يتصور أنني أبغضه وهذا ليس بصحيح. أنا أبغض وحشيته في الانتقام، ولكن سيبقى في نفسي جزء يحبه ويدعو الله له بالهداية. لقد أخطأ كلانا ، وسندفع الثمن قريبًا. يا الله، لا أريد سوى أن ندفعه نحن، لا دخل لذوينا يا رحيم!

كان (عادل) يبكي وهو يدعو الله بكل ما أوتي من قوة، وأمامه (أحمد) غير قادر على الرد، وكانت هذه آخر مرة يرى عمه فيها. كانت تربطه بعمه علاقة مميزة على عكس (جمال). لقد أخذ من أخيه كل شيء إلا كرهه لعمه، كان يخبره دائمًا أن عمه لا يحبه كما يبدو له، إنه فقط يفرق بينهما في المعاملة انتقامًا منه، وبرغم حب (أحمد) لأخيه الأكبر إلا أنه لم يصدقه في ذلك الأمر، وظل قريبًا من عمه وولده وحفيدته، وقد ساعده على ذلك أبوه وأمه، فقد كانوا رغم كل شيء غير مقتنعين بأن (عادل) قد أمر بقتل خطيبة ابنهم عمدًا، إلا أنم لم يستطيعوا مخالفة ابنهم الكبير، فسايراه في أمره كي لا يخسراه. نعم، أخطأ، لكنه ليس بقاتل. لم يعلموا حقيقة الأمر لذلك لم يصدروا حكمًا نهائيًا بقطيعة الرحم، اكتفوا باحترام مشاعر ابنهم في البعد وفي نفس الوقت احترموا رغبة ابنهم الثاني في وصل رحمه، خاصةً أمه، كانت دائمًا تحدثه عن (سليم) ومدى حبها له..

نادية:

- (سليم) ولدي مثلك أنت وأخيك يا (أحمد)، لقد ربيته وأرضعته كأحد أبنائي بعد وفاة والدته -رحمها الله- ولا أنسى لجدك كذلك إحسانه تجاهي، لقد عاملني كسيدة للمنزل لسنوات طويلة، حتى قُتلت خطيبة أخيك، حينها انقلب كل شيء. اسمعني يا ولدي، إن كانت السبل بين عمك وعائلته قُطعت من جانب أخيك، قم أنت بوصلها من ناحيتك.

هكذا قالت أمي وهكذا وددت أنا، ولكن القدر لم يمهلني حتى أنفذ ما تمنيته.

***

الزمان: يناير ١٩٩٣

المكان: مصر الجديدة.. .مدينة القاهرة.

يعود (جمال) إلى منزل أبويه بعد انتهاء النصف الأول من العام الدراسي قبل الأخير له في كلية الشرطة. يحب هذا المنزل كثيرًا، فهو يمثل له بدايته الجديدة.. لم يستطع أن يحيا في المنيا كلها، لم تكن المعضلة في بيت جده، لقد نقلهم أبوه إلى منزل آخر يملكه، إلا أنه لم يستطع البقاء في المحافظة بأسرها، فقد كان كل شيء يذكره بها، أشكال المنازل وواجهات المحال وملامح البشر، حتى مزرعته الواسعة أصبحت مكانًا ضيقًا يبعث على الشعور بالألم في نفسه. هنا كان يلتقيها، كان يراها وينظر إليها ويحدثها في كل أمور الدنيا، والآن وقد رحلت هي ومرت السنون، ماذا بقي له من ذكراها؟ مزرعة صغيرة وخاتم من الفضة عاهدها على ألا ينزعه من إصبعه!

- آاه.. متى كُتب عليك أن تكون كسير القلب هكذا يا (جمال)؟!

كان السيد/ يوسف يرى حالة ولده المؤسفة أمامه ولا يعرف ماذا يصنع له، ها هو ولده الوحيد وصديقه الأقرب في هذه الدنيا يذبل أمامه رويدًا رويدًا، بينما يقف هو عاجزًا أمام ألم روحه الكبير. لذلك حينما سيأتي إليه (جمال) بعد أقل من

عام على وفاة (بسمة) ليخبره بأنه مدينته الواسعة قد ضاقت عليه، لن يتردد مرتين من أن يجمع عائلته الصغيرة ويرحل بها إلى مدينة القاهرة.

وفي إحدى صباحات يناير، يعود الفتى الحزين إلى بيت أبيه فلا يجد أحدًا داخله، ثم لا يلبث كلاهما أن يعود بعد ساعة مع مفاجأة غريبة من نوعها بالنسبة إلى (جمال). يفتح السيد (يوسف) باب المنزل وهو يأخذ بيدي زوجته (نادية) برفق كي تدخل، فيجدان أمامهما ابنهما في انتظارهما مبتسمًا، وما يلبث أن يُقبل عليهما يحتضن كلاهما في محبة وشوق.

جمال:

- أين كنتما؟ لقد قلقت عليكما كثيرًا.. كيف حالكما؟

نادية:

- حمدًا لله على سلامتك يا ولدي. لم نكن نعلم أنك ستصل اليوم.

يوسف:

- لو كنا نعلم لانتظرناك يا عزيزي!

جمال:

- لا يهم.. المهم أننا اجتمعنا بعد أشهر طويلة لقد...

لم يكمل جمال كلماته، إذ وقع نظره على بطن أمه المنتفخ مما أدى لتوقفه عن الكلام:

- أمي، ما هذا؟ هل أنتِ بخير؟! شفاكِ الله وعافاكِ.. الآن فهمت، لقد كنتما عند الطبيب.. ما الأمر؟ أخبراني!

نظر كلٌ من (يوسف) و(نادية) إلى بعضهما البعض في حرج، حتى قرر الأب أن يأخذ زمام المبادرة بالحديث نيابة عن زوجته:

- عزيزي (جمال).. لقد كنا نود إخبارك ولكنك كنت ترفض أن تأتي في إجازات الكلية. عزيزي، إن والدتك ستنجب لك عن قريب - بإذن الله تعالى- أخًا أو أختا.. وهذا سبب خروجنا اليوم.. لقد كنا عند الطبيب نطمئن على صحتها.

ينظر (جمال) إلى والدته والدهشة والابتسامة تعلو وجهه، ثم ما يلبث أن يحتضنها:

- مبارك علينا يا أمي هذا الخبر الجميل. بإذن الله سيأتي الطفل في أتم صحة وعافية، حمدًا لله أنكِ لستِ مريضة لا سمح الله.

تبتسم (نادية) والارتياح باديًا على وجهها، فقد كانت تظن أن ولدها سيغضب ويثور وقتما يعلم أن أمه ستنجب وهو في الحادية والعشرين من العمر، إلا أن فرحته الحقيقية أزاحت من على قلبها عبئًا كبيرًا:

- بارك الله فيك يا ولدي وأطال عمرك. لقد كنت أحسبك ستغضب وقتما تعلم. أنت حقًا لست بمستاءٍ أنه سيأتيك أخ في هذا العمر؟

جمال:

- إطلاقًا! كيف أغضب من نعمة الله علينا؟! لطالما تمنيت أن أصير أخًا أكبر لفتى أو فتاة. ها قد تحققت الأمنية أخيرًا. لا تفكري بمثل هذه المعتقدات مرة أخرى، أهم شيء سلامتك وسلامة الجنين الآن، وأنا أعدك أنني سأقتنص أي فرصة لزيارتكما خلال الفصل الدراسي الثاني.

يوسف:

- ألم أخبرك يا عزيزتي، إن (جمال) فتى مهذب ومتنور، لطالما كنت أباهي برجاحة عقله وحسن خلقه. بارك الله فيك يا ولدي، لقد أخبرتها أنك ستسعد بمثل هذا الخبر.

جمال:

- طبعا أنا بالفعل سعيد. هل فكرتما في أسماء للطفل؟ يجب أن تختاروا أسماء منذ الآن!

تتبادل (نادية) النظرات والبسمات مع زوجها بعد مرور الأمر بسلام، ثم تتوجه لولدها بالحديث:

- لقد فكرت أنا ووالدك بالأمر قبيل مجيئك، واقترحنا أن تسمي أنت. لطالما كنت تحدثني أنك عندما تنجب ستهتم باختيار أسماء

مميزة لأبنائك، والطفل القادم سيكون بمثابة ابن لك أكثر منه أخ.

هيا، قل لنا اختياراتك!

في تلك اللحظة لم تكن (نادية) تعلم أنها تنكئ دون قصد جراح ابنها القديمة وتذكره بـ (بسمة)، تذكره بأيام خطبتهم وحديثهم عن أسماء أبناءهم المستقبلين، لم تكن تعلم أنه اختار اسم (أحمد) إذا كان فتى وأن حبيبته اختارت اسم (سُلاف) إذا كانت فتاة.

جمال:

- سيكون (أحمد) إن كان فتى، وستكون (سُلاف) إذا جاءت فتاة.

قالها وهو يبتسم حزنًا لا فرحًا، بينما أبويه أمامه لا يدريان شيئًا.

***

الزمان: **فبراير** ٢٠٢٣.

المكان: *مصر الجديدة.. منزل عائلة الذهبي*.

يجلس الجميع في المنزل عدا (جمال)، يرفض أن يترك ابنته وحدها، ويرفض أن يبقى بجانبها أحدٌ غيره. أخبرهم أن يظلوا جميعًا في المنزل من أجل (كرمة)، ولم يجدوا أمامهم سوى أن يمتثلوا لأمره. ما الحكمة من أن يلتف الجميع حول فتاة غير واعية؟ يكفيها أبيها بجانبها والبقية يذهبون في زيارات قصيرة. يجلس (أحمد) مع أبويه وزوجته وزوجة أخيه في المنزل لا يعلمون ما الذي يجب عليهم فعله.

يوسف:

- هل سنصمت هكذا؟ حفيدتي نائمة لا حول لها ولا قوة، وزوجها قتيل وابنتها لا تدري عن والديها شيئًا. ما العمل يا إلهي! هل كتب عليّ أن أرى وجيعة أبنائي يا رب؟ بالأمس ابني واليوم ابنته؟!

منال:

- وما الحيلة بيدينا يا عمي؟ لم يعد بإمكاننا معرفة القاتل، لقد أثبت تقرير الطب الشرعي أن (سُلاف) كانت نائمة في السرير حينما

أطلقت عليها نيران الغدر، ثم أطلق القاتل مرة أخرى على (رامي) رحمه الله، فكيف لنا أن نعلم ما حدث؟!

أحمد:

- سأعلم من هو يا (منال)، أقسم لكم جميعًا أنني سأعلم من هو وحينها سأقتله أنا بيدي هاتين، لن أتركه ليد الشرطة!

نادية:

- لا تقل هذا يا ولدي! أنت محام وأستاذ في الجامعة، لا تقلقني عليك أنت الآخر. بإذن الله ستشفى (سُلاف) وستعود إلينا وإلى أحضان ابنتها قريبًا!
- لن يرينا الله فيها السوء.. لن أُفجع في أولادٍ آخرين!

نظرت إلى أمي وتذكرت كم كانت تحب (سليم،) كم بكته وبكت ابنته، وشعرت أنها أمًا وجدة ثكلى بعد فراقهما.

غادة:

- لن تعود يا أمي.. (سُلاف) لن تعود، ستموت وسيموت بعدها الرابط الوحيد الذي يجمعني بابنكِ وحينها سيكون ثأري معه هو، هو مَن تسبب فيما حدث، كما تسبب في موت عائلته من قبل!

كانت (غادة) في حالة واضحة من الانهيار، لم تنم منذ الحادث لدقيقة واحدة، منذ حادث ابنتها. لذلك ما كان منا إلا أن نتعامل معها بحذر بالغ وصمت دائم. وما لبثت أن انتهت مما تقول حتى وجدنا (كرمة) تقف وراءنا والخوف باديًا عليها.

يوسف:

- توقفي يا (غادة)، حفيدتك تقف ورائك يا ابنتي، اصمتِ!

غادة:

- لن أصمت.. دعها تسمع حقيقة ولدك يا أبي، دعها تعلم أن والدها قُتل وأمها ستلحقه قريبًا بسبب تاريخ جدها الأسود..

نادية:

- (منال)، خذي الفتاة إلى غرفتها بسرعة. (غادة) منهارة ولا تدري ما تقوله، هيا يا (كرمة) اذهبي مع... (كرمة)... أين؟!

وفي لحظة انتبهنا جميعنا أن الفتاة تركتنا ورحلت، وعلى ما يبدو أن أحدنا قد نسي باب البيت مفتوحًا!

***

الزمان: *مايو* ١٩٩٣

المكان: *إحدى مستشفيات القاهرة*.

(جمال) يجلس بجانب أمه حاملًا بيديه أخاه الصغير، تبدو عليه علامات الفرحة العارمة، وأبواه أمامه يلاحظان ذلك ويبتسمان.

يوسف:

- من يرى فرحتك الآن يظن أنك والده لا أخاه!

جمال:

- لقد فرحت عندما علمت أنني سأصير أخًا، لكن للأمانة لم أتخيل أنني سأكون فرحًا لتلك الدرجة وقت مجيئه للدنيا!

نادية ضاحكة:

- متعك الله بفرح الدنيا كله يا بني. أنت الآن لست مجرد أخ، أنت في مكانة والده، أريد منك أن تعتني به جيدًا كما ستعتني بأطفالك.

جمال:

- أعدكِ بهذا يا أمي ما دمت حيًّا، لن أعتني به فقط، بل سأفديه بروحي إن لزم الأمر.

بعد مرور ثلاثة أيام على ميلاد (أحمد)، جاءت عائلته لرؤية المولود وزيارته، وكان (جمال) قد جهز لهم استقبالًا كبيرًا لم يتوقعوه.

جمال:

- حمدًا لله على سلامتكم.. كيف حالكم؟

كان يتعامل بسلاسة وهدوء كأن شيئًا لم يحدث بينه وبين أهله قط، ابتسم الحاج حسين وأجابه:

- بخير يا بني.. كيف حالك أنت؟

جمال:

- الحمد لله، أصبحت أخًا كبيرًا.. إنه شعور رائع يا جدي.

عادل:

- حقًا.. أأنت سعيد بالأمر؟! لقد توقعت أنا وجدك أنك ستستاء لأن الفارق بينكما كبير!

ضحك (جمال) من رد عمه ثم أجابه:

- إطلاقًا يا عمي، لا أعلم لما فسرتم الأمر على هذا النحو، أبي وأمي أيضًا فكرا في هذا. ولكن العكس هو ما حدث.. أنا حقًا سعيد. لطالما كان (سليم) أخًا لي، ولكنه من مثل عمري، أما تجربة الأخ الأصغر هذه ممتعة للغاية!

نظر (جمال) تجاه (سليم) عندما قال تلك الجملة ليجده يبتسم تجاهه في وداعة وكأن ما بينهما قد تبخر فجأة.

سليم:

- طبعًا، نحن إخوة وسنظل هكذا مهما حدث، وها قد انضم إلينا (أحمد)!

جمال:

- صحيح يا أخي.. صحيح.

كان الجميع ينظرون نحو (جمال) وهم غير مصدقين لتغيراته المفاجأة، أبواه وجده وعمه وابن عمه. كان الأمر غريبًا وغير متوقع، وقد لاحظ (جمال) هذا واستغله أكثر!

جمال:

- طبعًا أنتم تستغربون تغيري المفاجئ، أليس كذلك؟! يعني تسألون أنفسكم ماذا حدث لهذا الولد.. تراه جن أم ماذا؟

حسين:

- بعيد الشر عنك يا ولدي، لا تكرر مثل هذا!

عادل:

- لا، لن نراك هكذا لا سمح الله. ولكننا لا نفهم سر التغيير الطارئ عليك!

جمال:

- معكم حق، أنا نفسي لم أكن أعي سر هذا التغيير. منذ علمي بقرب مجيء (أحمد) وقد لامس قلبي شيئًا ما، شعرت أنه ليس من الجيد أن يأتي طفل جديد لهذه العائلة ويحيا في هذا الجو من الشقاق، وفكرت أنه ليس من العدل أن أحرمه مما حصلت عليه أنا طوال عمري من دفء ومحبة أفراد عائلتي. أظن أن الوقت قد حان لأصلح ما أفسدته!

عادل:

- حقًا يا ابن أخي، تريد إصلاح الأمور؟!

جمال:

- حقًا يا عمي، يجب عليّ أن أعترف بخطأي، صحيح أنك عارضت زواجي من (بسمة) قديمًا.. إلا أن جدي وافق وأقنعك بأنها زيجة مناسبة لي، ما حدث بعد ذلك لم يكن لكما فيه أي ذنب. إنه قدر.. لماذا ستفعلون هذا؟! لقد قمتم بخطبتها لي بالفعل؟ لماذا ستعمدون لخطفها وقتلها؟ حتى حينما فكرت في أن (بسمة) جاءت لي تشكي ما سمعته منكم شعرت بعدم منطقيته؟! يبدو أنها -رحمها الله- كانت تخاف شيئًا ما في هذه المرحلة وأسقطته عليكم! هناك حلقة ما مفقودة في فكرة خطفها وقتلها، ولكن الأكيد أنها ليست مسؤوليتكم إطلاقًا!

حسين:

- بارك الله فيك يا ولدي وسدَّد خطاك، أنا أخبرت عمك وابن عمك أن ما حدث لك كان نتيجة للألم الذي مررت به وأنك ستعود لرشدك ولعائلتك مرة أخرى.

جمال:

- صدقت يا جدي، دائمًا ما كنت تفهمني أكثر من نفسي، لقد تسبب ألمي في فقداني لصوابي، إلا أن قدوم (أحمد) غير كل شيء بداخلي. حتى أنني فكرت فيما قاله عمي منذ ثلاث سنوات عن أهمية زواجي أنا و(سليم) من فتيات السيد (فاضل)!
- ماذا؟!

نطقها الجميع بعد صمت طويل وهم يستمعون إليَّ في دهشة إلا أن آخر كلماتي كانت الكلمة القاضية بالنسبة لهم جميعًا.

يوسف:

- عن أي زواج تتحدث أنت؟!

نادية:

- ما الأمر يا ولدي؟ كيف تقرر أمرًا خطيرًا كالزواج هكذا بمفردك، إنك لم تتخرج بعد لتتزوج يا حبيبي!

جمال:

- أبي، أمي، اسمعاني قليلًا.. أنا لا أقول زواج، فقط خطبة من أجل حفظ المال كما قال عمي سابقًا!

حسين:

- عين العقل يا ولدي، (يوسف)، (نادية) ما بالكما تعارضان الفتى؟! لقد عاد إلى رشده أخيرًا.. وكما قال عمك سابقًا الفتيات صغار وهذا من حسن حظنا، نفاتحهم في الأمر وتتزوجون فور التخرج العام القادم. ولكن لا يصح أن تفعل ذلك دون العودة إلى بيتك، أليس كذلك؟!

جمال:

- طبعًا يا جدي، سأعود إلى بيتي وعائلتي وحياتي. حتى (سالم)، لقد أهملته بعد الحادث، إنه صديقي قبل أن تتم خطبتي بتوأمه، ويجب عليّ أن أساعده في الشفاء كما ساعدت نفسي. بإذن الله سيكون القادم أجمل.

بعد أن انتهيت من كلماتي نهض جدي لاحتضاني، وبينما أنا مرتميًا بين أحضانه كان أبي أمامي ينظر إليّ بعينين مقهورتين. لم يفهمني مخلوق في الدنيا مثل أبي، يعلم كلانا تمام العلم أنني لست عائدًا من أجل زرع الخير، بل من أجل حصد ثمار الشر.

***

الزمان: فبراير ٢٠٢٣.

المكان: مصر الجديدة.. منزل عائلة الذهبي.

خرجت مسرعًا خلف (كرمة)، إلى أن وجدتها أخيرًا تسير وحدها باكية ويداها فوق أذنها.

- (كرمة).. انتظري!

ظللت أعدو إلى أن أمسكت بها أخيرًا:

- لا تبكي يا (كرمة).. ما سمعتيه غير صحيح، جدك لم يفعل شيئًا، جدكِ يحبكِ يا عزيزتي، جميعنا نحبكِ!

كرمة:

- أبي وأمي أين هم؟ أريدهم الآن!

كنت أنظر إليها وعبراتي تغالبني، لا أعلم كيف أجيبها. لو كانت فتاة عاقلة راشدة لكان الأمر أيسر عليّ. إلا أنني أقف أمام فتاة خجولة تبلغ من العمر ثلاث سنوات ولا أدري، ما السبيل لإدارة حديث معها!

أحمد:

- هما فقط مسافران الآن يا صغيرتي، وسيعودان قريبًا. والداكِ يحبانكِ كثيرًا، لا تفكرين بأمر سفرهم الآن. وأرجوكِ لا تخرجي وحدكِ هكذا مرة أخرى!

كرمة:

- أخاف من جدتي.. أريد أمي!

كانت تتكلم وهي تبكي وتصرخ بينما أنا صامت ويائس أمامها:

- أعدك أننا سنذهب إليها قريبًا.. ولكن عديني ألا تتركينا هكذا ثانية، جميعنا نحبك يا ابنتي لا تتركينا ثانية!

احتضنتني (كرمة) بشدة بعد أن انتهيت من كلماتي إليها، وبكيت بين ذراعي.. وما كان مني إلا أن حملتها بهدوء عائدًا بها إلى البيت. وما إن وصلت إلى داخل البيت همَّ الجميع للاطمئنان عليها. أشرت إليهم بالسكون وصعدت بالفتاة إلى غرفتها حتى اطمأنّت ونامت. وعند نزولي لساحة البيت وجدت (جمال) وزوجته أمامه تصرخ بوجهه:

- ماذا فعلت يا (جمال)؟ ماذا فعلت حتى يُجلب علينا كل هذا البلاء بسببك؟! ابنتي تموت في المشفى وزوجها قُتل.. وعائلتك قُتلت من قبل على يد صديقك! أخبرني ماذا فعلت لكي ينتقم منا الآخرون هكذا؟!

جمال:

- لم أفعل شيئًا، وتوقفي عن جنانك هذا.. إنها ابنتي أنا أيضًا، لستِ وحدك في مصابك!

أحمد:

- توقفي يا زوجة أخي، الفتاة مذعورة بما يكفي في غرفتها.. توقفي!

جمال:

- عمَّن تتكلم؟ مَن المذعورة؟ (كرمة)؟! هل تحدثتم أمامها؟!

غادة:

- نعم، تحدثت أمامها، أخبرتها أنك قتلت والدها ووالدتها وخرجت بعد معرفتها تجري في الشوارع. لقد أعلمتها حقيقتك أيها القاتل.

جمال:

- أي حقيقة أيتها الخرقاء؟ أي حقيقة؟! ما الذي فعلته أنا؟ !كيف تفعلين هذا بحفيدتك يا معتوهة؟

منال:

- لا تفعلوا هذا أرجوكم! الفتاة في غرفتها تعاني بسببكم، توقفوا!

غادة:

- لن أتوقف يا (منال).. أنتِ لا تعلمين شيئًا عن ذاك القاتل، لقد دبر مكيدة من أجل هدم ثروة جده وعمه.. تفضل واشرح لهم ماذا صنعت. لمدة ثلاث سنوات ترمي بذنب مقتل عائلتك على (سالم)، لا، ليس (سالم) بالقاتل وحده، بل أنت أيضًا يا سيد (ج).. أم تحب أن أناديك بالمدعو (ج)!

وبمجرد أن نطقت (غادة) بهذا اللقب ما كان من (جمال) إلا أن صمت وعاد إلى الوراء بخطوات متثاقلة أرعبت أبويه من أن يكون قد أصابه شيء. بينما (غادة) تضحك بهيستريا أمامه وتردد:

- ما بك يا عزيزي؟ هل نسيت كنيتك القديمة؟ ماذا كنت تظن؟ أن كوارثك ستسقط بالتقادم يا سيد (ج)؟!

***

الزمان: يوليو ١٩٩٣

المكان: محافظة المنيا.

يعود (جمال) مع أسرته بعد سنوات من الغياب، يستقبلهم من يعرفهم في المدينة بحفاوة بالغة، خاصة عندما يعلمون بقدوم (أحمد). يقرر الحاج (حسين الذهبي) أن يقيم ليالي لله في ظاهرها فرحًا بميلاد حفيد جديد له، وباطنها سعادة بعودة ابنه الثاني وعائلته لأحضانه مرة أخرى. يتسلل (جمال) من بينهم ويذهب لرؤية صديقه القديم (سالم) وفي عقله وقلبه يختمر الكثير من الشر.

يمر بجوانب الحي الصامت، وينظر حوله في المكان الذي اغتيلت فيه بسمة عمره، ينظر إلى الأرض التي تشرَّبت من آثار دماءها ويرى الناس من حوله يسرعون الخطى فوقها، يود لو يصرخ بهم جميعًا "ما بالكم تطأ أقدامكم دماء الحبيبة هكذا؟!"، ثم يعود بعدها إلى رشده ويرفع عينه باتجاه الناس، فيجدهم ما زالوا على هيئاتهم، وما زالت البيوت على حالها، إلا أن غياب (بسمة) غيّر معنى الدنيا في عينيه وحده، فما عادت الحياة حياة، وما عاد أهلها كم تعودهم.

ظل يسير حتى وقف أمام باب حبيبته بقلبٍ ذبيح وذاكرة لا يزورها النسيان، يداه بجانبه، لا تريدان دق الباب، وما يلبث بعد برهة أن يستجمع شجاعته

ويدقه. ويخيل إليه أن تعطف عليه (بسمة) وتفتح بابها، إلا أن من يفتح الباب ويراه أمامه أخاها، صديقه القديم ورفيق دربه وآلام فقده.

- (جمال)!

نطقها سالم والعبرات تغالبه، إلا أن (جمال) قاطعه وارتمى بين أحضانه باكيًا:

- كل هذه السنون لا أراك فيها؟ سامحك الله، أكنت تهجرني أم تهجر عائلتك؟!

جمال بصوتٍ يعلوه النحيب:

- أنا آسف.. أنا آسف، لم أستطع العودة، كنت ضعيفًا، لم أستطع العودة.

سالم:

- أعلم يا (جمال).. أعلم يا صديقي. هيا امسح دموعك ولا تدع الناس تراها، هيا أدخل إلى بيت أخيك، هيا!

دخل (جمال) إلى بهو البيت يتبع (سالم) في خطاه، ويهيّئ له أنه يشم رائحة عطر المحبوبة.

- لن أسألك كيف حالك لأنني رأيته الآن، ولكني سأسألك عما جئت لأجله بعد كل تلك السنين.. ما أعادك يا (جمال)؟!

جمال:

- الانتقام يا أخي هو ما أعادني، لقد جاء وقت الانتقام من قتلة (بسمة).

سالم:

- ماذا تقول؟ وهل علمت من هم؟ هيا نبلغ الشرطة كي يعيدوا فتح القضية!

جمال:

- الشرطة لن تفتح القضية لأنه لا يوجد دليل عما سأقوله الآن. القاتل معلوم لدي من أول يوم، إلا أني لا أملك عليه دليل. عمي بالاتفاق مع جدي حرَّضا على الخطف والقتل. لقد جاءتني المسكينة تبكي ليلة سفري الأخير قبل اختفاءها، جاءتني على محطة القطار تبكي وتروي لي ما سمعته من جدي وعمي وعن نيتهما في تهجيرك وإياها من البيت، و(سليم) أيضًا سمع الحوار وشهد به في محاضر الشرطة، لمدة ثلاث سنوات ألوم نفسي كل يوم على رحيلي وتركي إياها، كنت صغيرًا وأحمقًا، أمِنت مكر أهلي وصدقت براءتها حينما قالت لي لا تخف..

بكى (سالم) ولم ينطق وظل ينظر إلى (جمال) غير مصدق بشاعة ما يسمع.

جمال محاولًا التماسك وهو يجفف دموعه:

- لقد انتهى وقت بكاءنا يا (سالم).. القادم هو وقت بكاءهم هم. هناك تفصيلة صغيرة لم أطلعك عليها، لقد أنجبت أمي منذ نحو الشهر أخًا صغيرًا لي أسميته (أحمد). وهذا هو سبب الصلح العائلي بيننا، خدعتهم كما خدعوني وأقنعتهم أنني قد غفرت لهم ما مضى، وهذه مجرد بداية فقط!

نظر إليّ (سالم) في استغراب، هو لا يفهم نيتي، وقبل أن يبادرني بالسؤال بادرته أنا بالإجابة:

- أرى ما في عينيك من تساؤل، وسأجيبك عليه. ألم يفجعوني في بسمة من أجل المال؟! سأفجعهم أنا فيما فجعوني لأجله، سأسلبهم ما يملكون أمام ناظريهم.

***

وقف صامتا أمام زوجته لا يقوى على الحديث أمامها أو أمام أي فرد في العائلة، نظراته مثبتة عليها في دهشة ممزوجة ببعضٍ من غضب، ونظرات العائلة كلها مسلطة عليه في انتظار جواب ما.

جمال:

- من قال لك مثل هذا الأمر؟!

غادة:

- أجبني أولًا... ما...

انفجر أخي غاضبًا وهو يصرخ في زوجته:

- غادة، أجيبي عليّ، من أين علمتِ؟!

تبدل الوضع في لحظة وصار المواجه متهمًا والمتهم مواجهًا، وبعد أن كانت (غادة) تصرخ في زوجها ارتعدت فجأة بعد صرخته وبادرته بالإجابة في صوت مهزوز وبدن مقشعر تهتز أوصاله.

- حسنًا.. لقد علمت من جواب أُرسل إليّ و...

جمال:

- أي جواب؟!

غادة:

- جواب وصل إليّ اليوم فيه كل حقيقتك، جواب يسرد بالتفصيل ما فعلته في ثروة جدك وعمك، وبدلًا من أن تفسر لنا أي نوع من الأبناء العاقين أنت تأتي الآن وتتبجح أمامي وتسألني من أين عرفت!

جمال:

- أين ذاك الجواب؟! تكلمي.. أين هو؟! ألهذا الحد وصل غباؤك؟ أتظنين أنني أهتم بما يحتويه الجواب؟ أنا أريد أن أعرف مرسله!

مرسله هو قاتل ابنتك وزوجها أيتها الغافلة، يحاول ذرع الفتنة بيننا بجواب أحمق وضع في قلب بيتي.. والآن تكلمي أين الجواب؟!

صمت الجميع وتلهى في أمر الجواب نفسه.. بينما أنا وحدي نظري مثبت على (جمال) الذي استطاع أن ينسينا كل جرائمه بطريقته الدرامية وصرخاته المزلزلة وقدرته الخارقة على قلب الباطل حق والحق باطل في جزء من الثانية. و تراءت أمامي (غادة) من نمرة مفترسة إلى سيدة ضعيفة حمقاء تشعر بالذنب لعدم فطنتها لحيلة قاتل ابنتها المزعوم، وبصوت واهن ظلت تردد:

- لم أكن أعلم يا (جمال).. أعتذر لم أكن أعلم، الجواب في غرفتنا.

أزاحها من أمامه كما يزاح الشيء وصعد مهرولًا إلى غرفته، وعلى طاولة صغيرة وجد أمامه الجواب.

***

الزمان: ديسمبر ١٩٩٤

المكان: منزل عائلة الذهبي.. مدينة المنيا.

تجتمع العائلة كلها احتفالًا بتخرج ولديها من كلية الشرطة. أقام (حسين الذهبي) وليمة كبيرة وليلة لأهل الله. حضر الحفل كبار رجال المنيا، ومن ضمنهم عائلة (فاضل)، ومن هنا كانت بداية انتقام الفتى الحقيقية. انقسم الحفل إلى قسمين، رجال ونساء، إلا أن (جمال) قد لاحظ اهتمام (سليم) بالنظر إلى جانب النساء باهتمام شديد، ولم يكن من عادته أن يتطلع لأحد، مما جعل (جمال) يفطن لحظتها إلى أن هناك ما يشغله حقًا في تلك الزاوية.

جمال:

- ما أمرك اليوم يا رجل؟ أم أنه حبٌ جديد؟!

تلعثم (سليم) وبانت عليه علامات الحرج من كلمات (جمال):

- فلتكتم الأمر عني الآن يا (جمال)، لا أريد لأحدٍ أن يعرف حتى أعرف مشاعر الفتاة تجاهي!

جمال:

- ماذا؟ هل الأمر صحيح؟ لقد كنت أمزح معك! حسنًا، لم أكن أقصد أن أستخف بك يا (سليم). من هي؟ أخبرني يا أخي وسأساعدك في حسم أمرك تجاهها!

سليم:

- إنها (غالية) ابنة السيد فاضل الصغرى!

لو أن أحدًا بعث إلى (جمال) بأغلى هدايا الأرض في تلك اللحظة ما كان ليسعد مثلما سعد بكلمات ابن عمه في تلك اللحظة:

- يا هذا.. كيف تكتم عني مثل ذاك الخبر؟! يا الله.. اليوم كنت سأطلب رسميًا إحدى فتيات السيد (فاضل) ما كان الحال لو خطبني لمن تريدها الآن؟!

سليم:

- لا أعلم كيف تغيرت هكذا وقد كنت رافضًا للأمر من قبل حينما!

جمال:

- أكمل.. لمَ صمتَّ؟!
- رفضت حينما كانت (بسمة) على قيد الحياة، الآن ما المانع وقد توفيت منذ أعوام.. هل سأحيا كراهب بقية عمري؟!

سليم:

- سامحني يا (جمال)، لم أقصد نكأ جراحك، الأمر كله أنني قد دُهشت مما تقول قليلًا!

جمال:

- لا عليك.. ما الحياة إلا دهشة كبيرة سرعان ما تنتهي. إني ذاهب الآن كي أفاتح جدنا في الأمر، لشد سعادته وقتما يعلم!

احتضن (جمال) ابن عمه، وبارك له، وكانت تلك المباركة هي الشيء الوحيد الصادق في علاقته بعائلته، فبرغم كل عباراته القاسية التي وجهها إلى (سليم) في السنوات الأخيرة، إلا أنه ما قدر يومًا على غير محبته. فعلى الأقل سيتزوج أحدهما بمن يحب ويرضى. ذهب (جمال) باحثًا عن (سالم) وسط الحضور، بينما هو يوزع ابتساماته على الجميع، صادفه في إحدى الأركان واقفًا منزويًا ووجهه مكفهر من الدمع والغضب.

جمال:

- أراك تبكي!

سالم:

- لا قدرة لي على البكاء.. إنما هي عبرات احتبست في مقلتيّ.

جمال:

- انتظر لترى صنع أخيك في من ظلمونا، ووقتها نحن من سنرى أكثر من العبرات في أعينهم.

سالم:

- أنت لم تخبرني إلى الآن ما تنوي فعله، كلها عبارات مبهمة عن الانتقام!

جمال:

- لأن ما سأفعله لا يروى.. بل يرى. اثبت مكانك واستمتع بدمار (حسين الذهبي) وولده.

ربّت على كتف صديقه وتركه وذهب إلى غرفة المكتب حيث يقف جده والسيد (فاضل)، وما مكث غير خمس دقائق حتى خرج منها الجد محتضنًا حفيده ويأمر سيدات المنزل بإطلاق الزغاريد وإعلان الفرح في أرجاء البيت كله، معلنًا خطبة حفيديه من فتيات السيد (فاضل)، والزيجة خلال عدة أشهر.

وفي وسط ذهول (سالم) و(سليم) ودهشة مَن في الحفل، تلاقت عينا (جمال) مع والده، ولأول مرة رأى (جمال) والده يبكي دون صوت، يبكي ولده الذي بدّله الحزن واستولى عليه شيطان الانتقام. فقد استقر في يقين كليهما أن تلك الزيجة بوابة لخرابٍ كبير لا يعلم مداه إلا الله سبحانه وتعالى.

***

الزمان: *فبراير* ٢٠٢٣.

المكان: *منزل عائلة الذهبي.. مدينة القاهرة.*

(جمال) يصعد إلى غرفته في سرعة البرق، يضرب بابها بقدمه ضربة كادت تخلع جدران الغرفة نفسها، يدير مقلتيه مقدار ثوانٍ بحثًا عن أثر الجواب، وما لبث أن رآه على طاولة صغيرة، تناوله مسرعًا بعينين فاحصتين علَّه يجد بين ثناياه ما يثلج صدره ويطفئ نيران قلبه المحترق على ابنته المصابة. إلا أن الجواب لم يحمل في طياته سوى الادعاءات التي ذكرتها (غادة) دون دليل ولا بينة سوى ورقة مرسلة من مجهول لا قيمة لها.

جمال:

- كما توقعت.. لا عنوان لمرسل أو مرسل إليه! هذا ليس بجواب، إنما ورقة دُست في البيت لإيقاع الفتنة بيننا!

أحمد:

- هذا يعني أن ما بها ليس صحيحًا يا أخي!

التفت (جمال) على وقع الصوت ليجد العائلة كلها تنظر إليه في ترقب وقلق!

(منال) تتحدث بصوتٍ خافت:

- اصمت أرجوك.. أخاك وزوجته لا يتحملان أكثر!

أحمد:

- لن أصمت.. لقد سئمت حيل أخي الكبير وأريد إجابة شافية الآن. إما نعم وإما لا. هل ما ورد في الجواب صحيح يا أخي الأكبر؟!

جمال:

- وهل اطّلعت على فحوى المكتوب حتى تأتي وتجادلني؟!

أحمد:

- لا حاجة لي ولا لغيري لنطلع على شيء.. يكفيني قول (غادة).

جمال:

- ما شاء الله.. يبدو أن عدوى الجنون قد أصابتك أنت أيضًا. اسمع يا ولد، لا وقت لي لأضيعه معك الآن، أجد من فعل هذا بابنتي وسأتفرغ لخطاباتك العصماء بعدها.

ينتهي من كلماته ويهم للخروج من الغرفة، ليجد أبانا ممسكًا ذراعه بقوة وهو يوجه إليه نظرة صارمة لم أرها فيه منذ ولدت.

يوسف:

- لن تتحرك قيد أنملة قبل أن تجيب أخاك يا (جمال)!

ينظر (جمال) إلى أبينا في حيرة مَن لم يعتد سلوكًا مماثلًا من أبيه، إلا أنه سرعان ما يدرك حالة هدوء ما قبل العاصفة التي تبدو جلية على قسمات وجه والده. فيبتسم في هدوء وينزع ذراعه برفق من قبضة أبيه الحادة، ليشرع في بدء لعبته التي يتقنها جيدًا، قلب الطاولة بوجه مَن يعارضه عن طريق تزييف الحقائق، فتنقلب معه الأمور كلها.

جمال:

- أمرك يا أبي.. لن أغادر حتى تأذن لي. ولكن علام أجيب أخي؟ على ادعاء لا صحة له ولا برهان؟!

يوسف:

- دعك من الادعاء وسؤال أخيك ومن الورقة وما فيها، وأصدق أباك القول، هل كان لك يد في إفلاس عائلتك يا ولدي؟!

جمال:

- ربما (أحمد) لا يعلم لصغر سنه وقتها، ولكن أنا وأنت وأمي و(غادة) رأينا جمعاء من أفلس الشركة عن عمد لصالحه، ورأينا أيضًا عقاب الله له عما فعل!

كان يتكلم وهو ينظر إلى أعين زوجته الدامعة التي لا قدرة لها على النطق وهي التي تدرك مغزى كلماته جيدًا، وبينما يهم بالرحيل استجمعت شجاعتها أخيرًا وتكلمت:

- (جمال).. أنت ترى كيف عاقب الله أبي عما فعله في شركاتكم، أدعو من كل قلبي ألا تكون شريكه فننال نفس عقابه!

التفت إليها (جمال) وعيناه تبوحان بالكثير، ثم استدار ورحل. رأى الجميع الغضب على وجه (جمال)، بينما كنت أنا وحدي من رأى الخوف، وتيقنتُ وقتها من فعلة أخي، لقد أفلس أهله عن عمد انتقامًا لنفسه.

***

الزمان: ٢١ *أغسطس* ١٩٩٥.

المكان: *منزل عائلة الذهبي.. محافظة المنيا*.

يقف (جمال) في قلق باد عليه أمام غرفة العمليات، يقف معه أبوه أمه ووالد زوجته، الوسط مضطرب والجميع ينتظر ظهور شخصٍ ما يخبرهم عما يحدث، إلى أن يظهر طبيب ما ليطمئن الجميع.

الطبيب:

- سيد (جمال)، مبارك عليك، لقد وضعت زوجتك فتاة كالقمر، وهي والمولودة في أتم صحة وعافية.

يتمتم الحضور بأدعية الشكر إلى الله عما منحهم من عطية، ثم يهنئون ولدهم فرحين بالخبر، ولا تفت دقائق حتى يستدعي الطبيب (جمال) ليضع بين يديه ابنته الصغيرة.

- مبارك عليك.

ينطقها الطبيب ثم يذهب خارج الغرفة، ويبقى (جمال) وحده ينظر بفرحة إلى صغيرته غير مصدق أنه قد صار أبًا. يتبادلان النظرات والصغيرة صامتة وعيناها ثابتتين على أبيها لا تحركهما.

- هل ترينني يا صغيرتي؟ هل تميزين أباك؟! يا الله كم أنتِ جميلة! أتعلمين أنكِ قد ولدتِ في نفس يوم ميلادي أنا أيضًا؟ كلانا جاء في نفس اليوم، مصائرنا متشابكة منذ البداية، وستظل كذلك حتى النهاية. وها أنا أعدك يا زهرتي ألا أترك يدك الصغيرة أبدًا.. لن تتجرعي ألم أبيك ولن أسمح بكسر قلبك طالما حييت.

يتوافد الجميع للتهنئة والمباركة على مولد الفتاة. (سالم) وبقية العائلة حتى (سليم) الذي نُقل لأداء وظيفته في القاهرة يأتي مع زوجته التي اقترب موعد ولادتها هي الأخرى لرؤية الصغيرة. ينظر إليه أبوه مبتسمًا وهو يسأله عما اختار من أسماء لتلك الصبية الجميلة؟

- (سُلاف).. هكذا أسميتها يا أبي.

فرح الجميع بالاسم، حتى (غادة) استحسنت نطقه، فلم تكن قد سمعت به من قبل.

- (سُلاف جمال الذهبي). كم هو اختيار رائع يا عزيزي.. ولكن ما معناه؟!

تساءلت (الزوجة) في فرحة بينما تحتضنُ الفتاة بين ذراعيها.

- معناه الشراب الخالص اللذيذ..

تمتم الجميع بابتسامة وهدوء متقبلين الاسم الجديد. كانوا جميعهم لا يعلمون عنه شيئًا، ما عدا أخي وصديقه. تبادلا الصمت والألم من وقع ذكرى بعيدة. فكلاهما يعلم معناه ومن اختاره منذ البداية.

***

الزمان: ديسمبر ١٩٩٠.

المكان: منزل عائلة الذهبي.. محافظة المنيا.

يدنو إلى المطبخ حتى يراها، تقف في هدوء وروية كالأميرات تساعد والدته في إعداد الطعام مع بعض الخدم..

تتذوق بشفتيها الجميلتين مذاق العصير، ترتسم على وجهها ابتسامة رضا عن مذاقه، تخبر أمه أن المشروب قد صار جاهزًا وأنها ستقدم منه للعائلة قبل الغداء، وتبتسم هي موافقة إياها الرأي. تُجهز الكؤوس وتشرع في رفع رأسها فتراه أمامها، يشير إليها مبتسمًا واضعًا إصبعه على شفتيه في إشارة لها كي تصمت. تبتسم وتدرك مغزى الإشارة وتخرج في تؤدة وهدوء دون أن تلاحظ الأم ومن معها.

- ماذا تفعل في ركن المطبخ؟!
- أنظر إلى حبيبتي وهي تُعد بيديها أشهى الأطعمة.
- سامحك الله.. هل ستجاملني أنت أيضًا مثل أمك؟ إنها تمدح في كل ما أقدم وإن كان شربة ماء!
- حفظها الله لي، تراكِ بعين مُحب مثل ولدها وإن كانت صادقة في قولها، فكل ما تصنعينه جميل يا حبيبتي.
- حسنًا، فلتتذوق هذا الشراب أولًا ثم تثني كما تراءى لك.

يتناول (جمال) الشراب، ثم ما يلبث أن يبدي استحسانه لطعمه.

- لم أذق ألذ من هذا الشراب في عمري كله!
- نعم، إنه لذيذا كالسُلاف!
- وما هو السُلاف يا حبيبتي؟!
- هو الشراب الخالص اللذيذ الذي لا لذة بعده، هكذا سيكون طعم كل ما تناله مني يا (جمال)، أعدك بهذا يا عزيزي. وهذا سيكون اسم ابنتنا (سُلاف جمال الذهبي).

يبتسم (جمال) ثم يأخذ منها ما تحمل من كؤوس وهو يقول:

- حسنًا يا أم (سُلاف)، فلتذهبي الآن حيث أمي، ودعي لي أمر الشراب.

***

الزمان: **فبراير** ٢٠٢٣.

المكان: *منزل عائلة الذهبي.. محافظة القاهرة*.

يذهب (جمال) في هدوء كي يتفقد حفيدته الصغيرة، أمانة ابنته المريضة، فيراها تبكي صامتة في غرفة أمها، ينخلع قلبه لهيئتها إلا أنه يحاول كتمان أساه عليها من خلال رسم ابتسامة مزيفة.

- حبيبتي، لمَ تبكين؟ ما يزعجك يا ابنتي؟!
- أريد ماما.
- ألم أخبرك أن ماما مسافرة وأنها تركتك هنا حتى تعود!
- لا لا.. أريد ماما.

كانت تكرر الكلمات بشكل آلي، وهو لا يدري ماذا يصنع.

- ما معنى قُتل يا جدي؟ لقد قالت جدتي أن بابا قُتل!
- ينظر إليها (جمال) في أسى ودهشة ويبدو أنه لم يعد قادرًا على التحمل، فأمسك بقلبه وظل يبكِي أمام الصغيرة حتى انقلب الوضع فأصبحت هي من تهون عليه لا هو.
- حسنا يا جدي، أنت أيضًا حزين لعدم مجيء ماما؟ توقف لا تبكِ أرجوك!

كانت عبراته تسيل بحرقة كبيرة لأن حفيدته تذكره بابنته حينما كانت في نفس عمرها. كانت تشبهها في كل شيء، الشكل والطباع، فها هو يراها جميلة حانية كما أمها، وكان هذا مما يزيد أساه.

- اسمعي، سأشرح لكِ معنى هذا الكلمة لاحقًا، وسأدعكِ ترين أمكِ أيضًا. ولكن لتعديني بشيء أولًا، لا تُحزني نفسك هكذا! عديني بهذا يا ابنتي أرجوكِ!

هزت رأسها في وداعة وطيبة كما يفعل الأطفال، واحتضنت جدها بقوة، بينما يبكِي كلاهما دون صوت.

***

الزمان: ٢٨ *أغسطس* ١٩٩٥.

المكان: *منزل عائلة الذهبي.. مدينة المنيا*.

العائلة تحتفل بقدوم حفيدة جديدة، الجميع على أهبة الاستعداد لإعداد احتفالية ضخمة تليق بالصغيرة (سُلاف)، بينما (جمال) لا يفكر سوى في شيء واحد، الانتقام.

وبينما الجميع غارق فيما وراءه، انسحب هو بهدوء لزيارة قبر محبوبته. يتجه ببطء من مقابر المدينة، يبحث بين طيّاتها عن رفات عزيزة تخصه. يركع على ركبتيه أمام القبر، يمسح بيديه آثار تراب خفيفة على الشاهد الرخامي، يبتسم عند رؤيته لاسمها المنقوش بين ذرات الرخام، لا يقوى على النظر كثيرًا وتغالبه دموعه.

- عزيزتي (بسمة)، اليوم ولدت ابنتي، وضعت لها اسم (سُلاف) كما أردتِ. صرت أبًا، لكنكِ لن تصبحين يومًا الأم التي أردتِ أن تكونيها. لن تحملي ابنة لنا بين ذراعيكِ، ولن أتشارك معكِ الحياة التي حلمنا بها. هناك امرأة غيرك تشاركني تلك الحياة الآن، أو بمعنى أصح ذاك الخواء، لم تعد لي حياة من بعدك أكل وأشرب وأنام كما الدواب دون روح أو فرحة، وكيف أفعل وقلبي بين التراب! أتعلمين، يهيّأ للناس أنني تجاوزت ألم فقدك، يظنون واهمين أنني شرعتُ في بناء واقع جديد

لا يحتويكِ، إلا أنهم بلهاء يا عزيزتي، لا يدري أيٌّ منهم أنني الميت ولستِ أنتِ، لو أن للحجر عيونًا لبكى على حالي، ولو أن له لسان لوصف لكِ قدر حرقتي عليكِ. في البداية أردتُ الموت، كان كل ما رغبت فيه أن يواريني الثرى بجانبك، إلا أنني تيقنتُ لاحقًا أن الحزن لا يدفعنا إلى الموت الجسدي في كل الأحيان. أنا رجل فارغ يا (بسمة)، ممتلئ بالذكريات والألم والندم، وأنتِ فتاة صغيرة غُدر بها قبل الأوان. لم أكن أريد سواكِ يا منية القلب والروح، فليذهب الغنا والمال ولا يبقى غيرك فقط. حتى هذا الطلب الصغير استكثروه عليّ، لقد سلبوني أغلى عطايا الله لي، ومنذ الآن سأسلبهم أغلى ما يملكون في هذه الدنيا. المال، طبتِ حية وميتة يا بسمة العمر.. ارقدي في سلام، واتركيني لما قُدر لي، فاليوم هو وقت استيفاء الحقوق، واعلمي إلى أن يشاء الرحمن لقاءنا ثانية، أنني هنا أحلم بذاك اللقاء، وانتظره.

وحينما فرغ (جمال) من كلماته وجد خلفه يد حانية تربت على كتفه وتبكي حاله أكثر منه، كانت يد أباه.

***

الزمان: **فبراير** ٢٠٢٣.

المكان: *مديرية أمن القاهرة*.

يتجه (جمال) إلى مقر عمله، إلا أنه لا يصل إلى مكتبه، ويذهب لمقابلة الضابط المختص بالتحقيق في قضية ابنته وزوجها.

يدخل المكتب فجأة، ليجد الضابط منشغلًا بعمله، وأمامه تتناثر الصور الملتقطة من قبل فريق البحث الجنائي لجثة زوج ابنته وآثار الجريمة المتبقية. يتنبه الضابط سريعًا ويبدأ بلملم أوراقه، إلا أن (جمال) يمسك يده برفق ويمنعه أن يفعل.

- اترك كل شيء كما هو يا (يوسف).
- ولكن يا سيدي!
- افعل كما آمرك يا حضرة الضابط!
- أمرك يا سيدي.

ينفذ الضابط الأمر ويترك كل شيء ويجلس أمام (جمال) الذي بدأ بتفحص الصور وكأنها لغريب عنه.

- لا تفعل هذا بنفسك يا سيدي، المديرية كلها تبحث عن القاتل وصدقني هي مسألة وقت وسنكتشف من فعلها ولن يهرب بفعلته مهما حدث. لا تزد آلامك برؤية تلك الصور!

- أتظن أنني نسيت حتى تذكرني الصور؟ هل نسيت وأنا أهرول إلى بيت ابنتي من عدة أيام لأرى زوجها أردي قتيلًا بثلاث رصاصات، وابنتي يحملها المسعفون في لهفة وخوف من فقدانها داعين الله أن يسرعوا كي لا تلحق بزوجها! أتظن حقا أن مشكلتي في الصور!
- لم يكن ذنبك يا سيدي!
- بلى.. هو ذنبي. أتذكر ما حدث منذ ثلاث سنوات، قبل أن أطلق النار على (سالم)، أتذكر ما رويته لك على لسانه؟! "عقابك أنك ستشهد موت أحبابك يا جمال.. دفنت جميلة وستدفن ابن عمك، وقريبًا ابنتك".
- أذكر يا سيدي.. وأذكر وقتها أن رأيي في التحقيقات أن (سالم) قال تلك الكلمات كي يدفعك لتطلق عليه الرصاص كما حدث فيما بعد!
- لا يا (يوسف)، كان يعلم أنني سأقتله كي أنقذ (سليم) رحمه الله. (سالم) لم يقل كلماته عبثًا، إنما عن بينة ودليل..
- إلامَ ترمي يا سيدي؟ أيعقل أن...
- نعم يا يوسف، (سالم) ليس القاتل وحده، هناك من يساعد على إتمام مخططه بعد وفاته. وإن صحت كلماتي فهذا يعني أن الخطر لا يحدق بابنتي وحدها، إنما العائلة بأكملها!

***

أجلس وحدي في غرفتي ببيت أبي، لا أدري كيف أصنع إزاء كل المصائب التي تقابلنا مؤخرًا. ولا يفت وقت طويل حتى تأتي (منال) كي تتفقدني.

- ترفق بنفسك يا حبيبي.. لم تنم منذ الحادث!
- ومَن يغمض جفنه في مثل تلك الأيام؟!

تتنهد صامتة لا تعلم كيف تجيبني، إلى أن أصل الحديث مرة أخرى:

- (سُلاف) ستموت يا (منال)، سنفقدها، أنا أعلم هذا.
- اصمت أرجوك، لا تقل هذا، حفظها الله لعائلتها وابنتها.. لا نملك لها غير الدعاء.
- لن تعود.. ستتركني وحدي.. بالأمس (جميلة) واليوم (رامي) وغدًا (سُلاف). لمَ كُتب عليّ كل هذا المرار؟ أشاهد عائلتي تقتل أمامي.. والآن أنا مرغم على رؤية ما لا أطيق ثانية. (سليم) كان أخي، لقد ربينا معًا، أمنا واحدة إن لم يكن بالولادة فهو بالرضاع، والآن أين (سليم) و(جميلة)؟ أين عمي الذي لم أستطع وداعه؟ وأين جدي الذي لم تسمح لي الظروف بمعرفته ولقياه؟! أين عائلتي يا (منال)؟ من ذهب ومن سيبقى؟ لقد فقدت أخًا وابنة أخ من قبل، لا أريد اختبار هذا الشعور ثانية. ولمَ؟ ومن أجل ماذا؟! من أجل إرضاء غرور (جمال)؟ (جمال) الذي لم يشبع من الدم

والموت لأكثر من ثلاثين عامًا! الآن صرت متأكدًا أن (جمال) هو من أفلس العائلة فيما مضى وتسبب في موت جدي قهرًا وكمدًا على خسارة ماله وخيانة حفيده. يتحجج أنني كنت صغيرًا غير متذكر للماضي، ولكن ما حدث لا ينسى. إن إيذاء أروح الآخرين جريمة لا تسقط بالتقادم!

- لا تتهمه دون بينة يا حبيبي، أخبرني ما حدث!
- البينة معي وأنا أعلمها جيدًا. الآن يمكنني أن أخبرك ما حدث منذ ثمانية وعشرين عامًا...

***

الزمان: سبتمبر ١٩٩٥.

المكان: منزل عائلة فاضل.. مدينة المنيا.

يذهب (جمال) لزيارة زوجته في بيت أبيها، فكما تجري العادة في العائلات المصرية بأن تبقى الفتاة حديثة الولادة في بيت أبيها كي تلقى الرعاية اللازمة من أسرتها، وبالرغم من تعلق (جمال) الشديد بابنته إلا أنه لم يستطع رفض تلك العادات كي يبقى الود بينهما موصولًا ويحقق مناه.

زوجته تجلس في حديقة البيت تلاعب ابنتها الصغيرة النائمة في وداعة الملائكة، يجلس جمال جانبها بوداعة يحمل ابنته ويقبلها في اشتياق شديد، تنظر إليه زوجته في سعادة وامتنان وتبدأ حديثها معه:

- أنا ممتنة لك كثيرًا يا (جمال)، لم أكن أتصور أن تفرح هكذا عندما تصير أبًا، خاصة وأنها المولودة فتاة.. لقد خشيت أن...
- خشيت ماذا؟ ما بال الجميع يخشاني وكأنني ثور هائج؟ ألست بإنسان صاحب قلب وعاطفة؟ ومِمَ تخشين أصلًا؟ إنها عطية من الله، بل أغلى العطايا. لا يوجد فارق بين الفتاة والفتى في نظري، لقد اخترت لها اسمًا قبل مولدها لأنني توقعتها فتاة، كان قلبي يشعر بها وكنت سعيدًا. وبيني وبينك أحمد الله أنها فتاة، الفتيات رقيقات القلب، يملأن المنازل

فرحة وخيرًا. إياكِ أن تفكري بهذا الأمر ثانية، وإن كان على الفتيان فقد أعطاني الله (أحمد)، صحيح أنه أخي الصغير إلا أنه منذ ولادته وأنا المسؤول عنه في كل شيء، وهو بمثابة بعضٍ من ولدي. لا تفكري هكذا ثانية.. ناشدتك الله.

كانت (غادة) فرحة بكلمات زوجها ولا تصنع شيئًا سوى الابتسام والنظر بامتنان لذاك الرجل الرحيم الذي رزقها الله إياه، ولم تخرج من دوامة أفكارها حتى سمعت صوت أبيها:

- لمَ لا تأتي وتقيم معنا يا (جمال) حتى تتعافى زوجتك من آثار الولادة وترحلوا جميعًا؟ أنت تشتاق لابنتك كثيرًا وتتكبد عناء زيارتها يوميًا، ماذا يحدث إن أقمت معنا تلك الفترة؟!

جمال:

- أشكرك على عرضك يا سيد (فاضل)، ولكنني اعتدت على منزلي. إن كنت تشفق عليّ حقًا أعطنا إذنًا بالرحيل.. لقد تعافت (غادة) والحمد لله، الآن يجب أن تعود إلى المنزل.

يضحك (فاضل) ويربت على كتف زوج ابنته في إشارة بالموافقة:

- حسنًا يا بني، كما تريد، وإن كان يعز عليّ فراق فتياتي مرة واحدة، فها هي (غالية) قد ذهبت إلى القاهرة مع زوجها والآن (غادة) ترحل هي

الأخرى، ولكن ماذا نقول، إنها سنة الحياة. سيأتيك يومٌ أنت الآخر لتسلم فيه (سُلاف) لعريس المستقبل، تذكر ذلك!

ضحك الجميع بينما طلب (جمال) من زوجته أن تجهز نفسها كي يرحلوا سويًا. وما إن غادرت تحمل ابنتها حتى ذهب السيد (فاضل) مع زوج ابنته كي يتموا حديثهم في غرفة المكتب. وما إن دلفوا إلى الحجرة حتى أغلقوها من الداخل كي لا يقاطعهم أحد.

- أتراك فكرت فيما عرضته عليك يا سيدي؟
- ما تطلبه صعب المنال يا زوج ابنتي!
- وما الذي أطلبه أنا.. أقول لك أنني مستعد كي أعطيك مالك من شركائك السارقين وتأتي أنت لترفض عرضي الآن؟!
- أنت تتهم عائلتك بالسرقة يا (جمال)، أتدرك ما تقوله يا ولدي؟!
- نعم أدركه عين الإدراك.. لقد قام (حسين الذهبي) بالتحريض والاتفاق مع ولده (عادل) على سرقة أموالك بطريقة ممنهجة طيلة أعوام، كل ما يمتلكوه الآن لك فيه أكثر من النصف!
- وما الذي يدفعك لمعاداة أهلك من أجلي؟ هل تحبني أكثر منهم مثلًا؟!
- بل أحب ابنتي ولا أريد لها أن تنبت من حرام، هذا المال سيؤول إليّ أنا و(سليم) و(أحمد) في نهاية الأمر، وسيذهب بعدها إلى أبنائنا وبناتنا، وأنا لا أريد لنسلي أن ينبت من حرام. (حسين الذهبي) سارق.. ويستحق هذا العقاب!

- تقصد يستحق أن يُسرق؟!
- عملية استرداد الحقوق لا تسمى بالسرقة يا والد زوجتي!
- حسنًا.. هب أنني وافقتك، كيف سأسترد أموالي من جدك وعمك؟!
- تكفيني موافقتك على الأمر ومن بعدها نتوكل على الله ونبدأ في التنفيذ. ولكن اسمعني جيدًا، توقف عن محاولاتك في نقل (سليم) من عمله بالقاهرة إلى المنيا في الوقت الحالي، لا تُفسد عليّ ما صنعته من أجل نقله من المدينة!
- ماذا؟ أأنت من قام بـ...؟!
- نعم، أنا من عملت على نقل (سليم) إلى حيث يعمل الآن، لا يمكنني أن أتم عملي في وجوده، ينتهي عملنا وسأعيده إلى مكانه.
- (جمال)، أنت شيطان يا رجل؟ لما تراك تفعل كل هذا؟ كيف تنقل ابنتي الأخرى وزوجها دون أن تأخذ إذني؟ أتراك جُننت؟!
- ماذا كنت تظن؟ ضابط من أوائل دفعته له حق اختيار أي مكان للعمل به، يرحل فجأة من بلاده دون إبداء أية أسباب؟ أم تراك صدقت أنهم احتاجوه فعلًا للعمل في القاهرة لخبرته وكفاءته؟!
- هل ستتوقف أعمال الشرطة بالعاصمة كلها لعدم حضور ضابط واحد؟!
- لقد فعلت المستحيل من أجل ذهابه.. وسأفعلها ثانية من أجل عودته، ولكن بعد أن يتم مرادي.
- ماذا تريد أيها الداهية؟ انطق فورًا!

ضحك (جمال) وذهب للجلوس على أحد كراسي الغرفة واضعًا قدمه بوجه والد زوجته بينما يشعل سيجارة وهو في غاية الهدوء والثبات، وما إن نفخ دخانها حتى بدأ بشرح ما سيحدث:

- طيلة سنوات وأنا أنتظر هذه اللحظة، والآن بدأ التنفيذ. (حسين الذهبي) ما هو إلا كلب يسعى خلف جني الأموال، لذلك عندما يحين الوقت وتأتي أنت لتعرض عليه الشراكة مع السيد (ج) لن يتردد لحظة في إتمام الصفقة وإن كان على يقين من أنها مشبوهة.

***

الزمان: **فبراير** ٢٠٢٣.

المكان: *مديرية أمن القاهرة*.

يستأذن الضابط (يوسف) لمقابلة (جمال) في مكتبه ليطلعه على آخر مستجدات القضية، يسمح له (جمال) بالدخول ويبدأ الضابط في سرد ما جاء لأجله.

- طاب نهارك يا سيدي. أردت أن أُطلعك على ما استجد من أمور في القضية. كما تعلم يا سيدي فإن القضية لا تشغل المديرية وحدها، بل صارت قضية رأي عام أيضًا، فالسيدة (سُلاف) ابنة سيادتك كاتبة معروفة ولها مريدوها، وبمرور الأيام بدأت وسائل الإعلام ورواد مواقع التواصل الاجتماعي في اتهامنا بالإهمال والتأخر عن معرفة الجاني، لذلك بعد إذنك بالطبع لقد أمرت كل من يعمل معي في هذه القضية بالتكتم على أي معلومات وعدم البوح بشيء للصحافة حتى تنتهي نتائج التحقيقات.

- بارك الله فيك يا بني، بعيدا عن العمل أنا أراك كفئًا لتولي أمر هذه القضية وحلها، وبإذن الله ستصل فيها لنتائج سريعة كما فعلت قبل سنوات في قضايا الحي الصامت.
- العفو منك يا سيدي، ما كنت لأصل لما أنا فيه من ترقيات سريعة لولا ثناءك عليّ ومدحك، لقد نُقلت إلى المديرية بفضلك.
- لا يا (يوسف) أنت نُقلت بفضل عملك واجتهادك يا ولدي، لولا جهودك في كشف الأمر لي لما علمت أن (سالم) هو القاتل! ولو أنني استمعت لك باكرًا لربما كان (سليم) وعمي رحمهما الله أحياءً يرزقون الآن. لم أقل في حقك سوى الصدق.
- لا تلم نفسك يا سيدي، لم يكن ذنبك، أنا من تشرف بالعمل معك، وإن كنت حزينًا لمصابك في المرتين، إلا أن جزءًا كبيرًا مني فخور بالعمل تحت إشراف (جمال الذهبي). اسمح لي يا سيدي، فأنت لا تعطي نفسك قدرها، على مدار ثلاثين عامًا لم توجد قضية عصية عليك، سمعتك كبيرة في البلاد، ولا يوجد من يضاهيك أبدًا، وأنا أعدك بأن تلك القضية ستحل تحت إشرافك قريبًا بإذن الله.
- بإذن الله. هل هناك من جديد غير أمر الصحافة؟
- نعم هناك يا سيدي، وأتوقع أنها بداية لأمر جيد.. في لقائنا الماضي، أخبرتني أنك تعتقد بوجود شريك لـ (سالم) وأن قضايا القتل مرتبطة ببعضها، وعلى إثر هذا التوقع قررت أن أتبع الخيوط القديمة من بدايتها، وبالفعل ذهبت إلى المنيا لجمع المعلومات عن بداية الجرائم،

وهو بيت السيدة (كوثر القاضي) ويبدو أن توقعك صحيح يا سيدي، فقد تبين من تقريري بالتعاون مع رجال مديرية أمن المنيا أن هناك فتاة شابة كانت تتردد باستمرار على بيت السيدة (كوثر) مرتين في كل عام، وتحديدًا كان هذا التردد يتم في إجازة نصف العام ونهاية العام حسب التوقيت الدراسي، مما جعلنا نشك أن المترددة على ذاك المنزل إما أنها طالبة أو معلمة، ولكن بتكثيف التحقيقات وشهادة الشهود تبين لنا أن عمر تلك السيدة حتى مقتل السيدة (كوثر) لم يزد عن الثلاثين عامًا، وأنها تتردد عليها في تلك الأوقات من كل عام لتمكث في بيتها ما بين أسبوع إلى عشرة أيام دون أن يراها أحد أو ترى هي الناس منذ سنٍ صغيرة، وهذا يؤكد أنها ليست بمعلمة بدأت في زيارتها مؤخرًا حسب مواعيد إجازاتها من العمل، بل هي أشبه بفتاة ربيبة تتردد على منزلها من سنوات طوال، وبالفعل أكدت التحقيقات أن هذه السيدة المجهولة تتردد على المنزل مذ كانت طفلة صغيرة. في البداية كانت تأتي رفقة أحدهم إلى البيت، ومع مرور السنون بدأت تأتي وحدها، وقد تم هذا في سنوات مراهقتها، أي حينما صارت كبيرة بشكلٍ كافٍ للسفر والتنقل وحدها، بحسب تحرياتنا يا سيدي، فالسيدة (كوثر) أرملة من سن صغيرة ولم يسبق لها أن أنجبت من تلك الزيجة أبدًا، وإن كانت الفتاة ممن يُعطف عليهم من قبل السيدة فلمَ عساها تخفيها عن الناس؟ لا أحد يعلم بملامح تلك الفتاة بشكلٍ كامل على الإطلاق، فقد كانت

تزورها وهي شبه متخفية، وهذا يضعنا أمام احتمال وحيد لا شك فيه، وهو أن...

-سيد (يوسف)، إلامَ ترمي؟ أتظن أنها...؟!

-نعم يا سيدي.. ما تظنه صحيحًا، السيدة (كوثر) أنجبت فتاة بطريقة غير شرعية، وغالبًا نحن أمام سيدة في الثالثة والثلاثين من العمر تسعى للانتقام منك ومن عائلتك جرَّاء مقتل أمها.

***

الزمان: *أكتوبر* ١٩٩٥.

المكان: *مقر شركات عائلة الذهبي.. مدينة المنيا*.

يرتب السيد (فاضل) للقاء سريع مع شريكه (حسين الذهبي) وولده (عادل)، وينبه عليهما عدم اصطحاب (يوسف الذهبي) لهذا اللقاء خاصة. يبدأ الاجتماع، ينبه ثلاثتهم على موظفي الشركة بعدم إزعاجهم، ويبدأ الحوار بينهم.

حسين:

- ما الأمر يا فاضل؟ لمَ طلبت منا الاجتماع سريعًا ودون (يوسف) تحديدًا؟ أنسيت أنه ولدي وشريكي أيضًا!

عادل:

- ما الأمر يا نسيبي؟ ماذا تحيك من وراء ظهر أخي؟!

فاضل:

- هلا صمتما الآن حتى أشرع فيما أريد حكايته!

هز (حسين) رأسه في صمت، ثم أشار لولده حتى يصمت، ليبدأ (فاضل) في سرد الأمر.

فاضل:

- حسنًا، بداية من الآن إذا وافقتماني فيما أريد لن تنبسا ببنت شفه لـ (يوسف)، أعلم من الآن أنه سيعارض الأمر، بل سيفسده، وإن رفضتما فلا حرج عليكما وكأنني لم أتكلم من الأصل، هل اتفقنا؟

حسين:

- حسنًا، تكلم يا فاضل ولك عهدي وعهد ولدي بموافقة شروطك سواء قبلنا أو رفضنا. والآن ما وراءك!

فاضل:

- كلاكما يعلم أننا نعاني أزمة مالية في الآونة الأخيرة، وكانت النتيجة غير مرضية، فقد توقفنا عن بعض المشاريع الهامة التي كنا بصدد بدايتها لعدم وجود الدعم المالي الكافي لها، وقد حدث لكم الأمر عينه قبل شراكتنا فيما مضى، ولو استمر الوضع هكذا سنُفلس إذا لم نتدارك أنفسنا كما يجب..

حسين:

- وما عرضك الذي سينقذ أموالنا يا سيد(فاضل)؟

فاضل:

- في الحقيقة، لقد فكرت كثيرًا قبل أن أقبل بذاك العرض ولكن لا مفر، لقد صرنا عائلة واحدة الآن، ومن مصلحتنا ألا نفقد أموالنا وأموال أبناءنا ونجلس نشاهد هذه الكارثة دون تدخل واعٍ منا...

عادل:

- لا تراوغ يا (فاضل) وصرح بما تريد سريعًا!

فاضل:

- أريد أن أفعل كما فعلتم سابقًا، أريد أن أُدخل شريكًا رابعًا لنا.

عادل:

- تقصد خامسًا.. (يوسف) شريك لنا في كل شيء، أم نسيت؟!

فاضل:

- لقد تجاوزنا أمر أخيك منذ موافقتكما على عرضي.

عادل:

- أولًا، نحن لم نوافق على عرضك، لقد وافقنا على الاستماع إليك وأننا لن نخبر (يوسف) إذا وافقنا، ولا مانع من أن نرفض بهدوء. أما أن نلغي شراكته فالأمر لم يُطرح من الأساس.

حسين:

- انتظر يا ولدي حتى يُكمل، أريد أن أعلم عرضه بالكامل.

فاضل:

- حسنًا، سأوضح لكما بشكل أكبر، أنا أعلم أن أموالكما مصدرها ميراثكما من والدتكما أنت وأخوك رحمها الله، وأن المال ليس مال أبيك وحده، وأعلم أيضًا أن لكما ممتلكات في القاهرة والإسكندرية غير تلك الشركات، إن وافقتما على عرضي، فلننهِ شراكة (يوسف) من عملنا وتعطوه بديلها أراضٍ وعقارات في مدن أخرى، وبهذا لا يتبقى لكما سوى الشركات نديرها بروية وهدوء بعيدًا عن تحكمات (يوسف)!

عادل:

- أجننت يا هذا؟ توزع أملاك العائلة كما ترى وتريد؟ هل ورثت مال أمنا وأبينا دون أن ندري!

حسين:

- (عادل)، توقف ودعه يكمل.

عادل:

- يكمل ماذا يا أبي؟ هذا الرجل يريد زرع الفتنة بيننا.. أتريدنا أن نترك (يوسف) كي يرحل هو وأسرته ثانية؟! لقد فعلنا المستحيل حتى هدى الله ولده واستقر معنا، نأتي الآن ونقل له فليرحل ويتركنا! كيف هذا!

فاضل:

- إن كنت تبحث عن الحجة فهي لدي، سأنقل ولده إلى القاهرة، وهو غير قادر على فراقه كما تعلم، سيذهب وراءه، حينها تتحججون بانشغاله عن إدارة الشركات وتعفونه من عمله لقاء أملاك أخرى تعوضه عن نصيبه بها.

عادل:

- ولِمَ كل هذا ومن أجل من؟! إن كان شريكك يكره أخي لتلك الدرجة فليذهب هو وأمواله إلى الجحيم، لا نريده من الأساس!

فاضل:

- شريكي هذا هو من سينقذنا من الإفلاس! وبدلًا من أن تشكرونني تختلقون لي المشاكل!

عادل:

- أنت رجل مجنون.. أنسيت أن ابن (يوسف) متزوج من ابنتك؟ إن نقلت ولده فأنت تضحي ببقاء ابنتك بجانبك في نفس المدينة. كيف تفعل هذا وتبعث بهم لأبعد مكان ممكن!

فاضل:

- على أساس أن ابنتي الثانية بين أحضاني! ها قد أخذها ولدك الآخر ورحل..

عادل:

- إنها مسألة وقت وسيعود، أنا لا أريد أن يتبعثر نسلنا بين البلدان، هناك عائلة وأعمال وتجارة تنتظرهم هنا!

فاضل:

- لن يعود يا (عادل)، (سليم) لن يعود بتلك السهولة، ما زال ضابطًا صغيرًا لا حيلة له في اختيار موقعه، وما أفعله هو أنني أبعث بعمه وابن عمه بجانبه كي يؤنسوا وحشته ريثما تنصلح أمورنا.

حسين:

- (عادل)، توقف يا ولدي عن مقاطعة شريكنا، يبدو أن لديه عرضًا سخيًا يسر الخاطر، ولا بأس من بعض التضحيات في بادئ الأمر!

نظر (عادل) إلى والده في دهشة مَن لا يصدق منطقه، أيعقل أن يبعثر العائلة من أجل عرض مجهول! كان (عادل) على الرغم من همجيته الظاهرة إلا أنه أحبَّ أخاه حبًا حقيقيًا، وكذلك أحبَّ ابن أخيه على نفس المنوال، وكانت كل أفعاله رغم خطأها نابعة من ذاك الحب والرغبة في حفظ العائلة من التشتت والضياع. أما أباه فبرغم وداعته الظاهرة وابتسامته الخادعة في معظم الوقت كان في قرارة نفسه لا يهتم سوى للمال فقط. وشرع (عادل) في خشية أبايه للمرة الأولى في عمره كله، فآثر الصمت متحفظًا إزاء اكتشافه لحقيقة أبيه الواعرة، المال أولًا ثم الأبناء. بينما ارتسمت على شفتي (فاضل) ابتسامة خفيفة فرحًا بنصرٍ قريب، وإيمانًا بفطنة

(جمال) الذي أخبره أن لا شيء يهم جده سوى المال، وفي مقابل هذا سيفعل كل شيء وأي شيء من أجل زيادته، لذا عندما يخبر السيد (فاضل) شريكه (حسين) بأن شريكهم الجديد هو تاجر سلاح ومخدرات ذاع صيته يلقب نفسه بالمدعو (ج)، لن يجد السيد (حسين) حرجًا من أن يعبث بحبات سبحته الغالية متمتمًا بذكر الله في خشوع وهدوء غير مبالٍ بنظرات ولده (عادل) النارية، بينما يخبر شريكه (فاضل) أن لا مانع عنده من مفارقته لولده -قرة عينه- من أجل استقرار الأمور، فالحياة صعبة واختياراتها قاسية.

***

الزمان: فبراير ٢٠٢٣.

المكان: أحد مستشفيات مدينة القاهرة.

يذهب (جمال) إلى جانب ابنته ناظرًا إليها وهو ممسكًا بيديها كعادته معها من وقت مرضها، يتمتم بداخله بكل سور القرآن والأدعية التي تخطر على باله، وبينما هو غارق في التفكير بكلمات الضابط (يوسف)، يشعر بأصابع ابنته وهي تتحرك ببطء بين يديه، ينظر إليها لوهلة، يتوقف فيها عن كل شيء حتى التنفس، دقات قلبه تتسارع وعينيه الدامعتين تتوسع حدقتها، وكل ما يخطر على باله هو خشيته أن يكون ما حدث مجرد حلم عابر لا صحة له، إلا أن تتبدد ظلمة الشك بنور اليقين، وتفتح أخيرًا عينيها في وهن وضعف بالغ. يهم بعدها ليحتضنها بقوة دون أن يقدر على الهمس بأي كلمة أخرى، الصدمة تلجم لسانه والفرحة لا تسعه، صغيرته عادت من جديد. تحاول هي الأخرى احتضانه بكل ما تملك من قوة وهي تهمس بصوت واهن :

- لقد سمعت كل كلماتك لي يا أبي، أعلم أن (رامي) سبقني بالرحيل.. تذكر أنني أحبك كثيرًا.. اعتنِ بـ (كرمة) أرجوك!

تنهي كلماتها، تصمت في البرهة ذاتها، تغلق عينيها ويدها تنساب عن ظهر أبيها، يثقل جسدها بعد أن غادرته الروح، يدرك (جمال) بعقله أنها ماتت بين ذراعيه، قلبه يرفض التصديق وعيونه غير قادرة على البكاء، لا يعلم كم مرَّ عليه من الوقت قبل أن يطلق آهًا موجعة لم يسبق لأحد أن سمعها من قبل.

***

الزمان: أكتوبر ١٩٩٥.

المكان: منزل عائلة فاضل.. مدينة المنيا.

يجلس في غرفة المكتب الكبيرة في المنزل، ينفث دخان سيجارته بلذة لم يعهدها في نفسه من قبل، يشعر وكأنه قد صار إنسانًا آخر، فيما سبق كانت فرحته بسيطة وأسبابها معقولة، أما الآن فلم يعد يثلج صدره سوى دمار جده وعمه، خاصةً جده. قد ظن من حوله أن خصومة قلبه مع عمه، بينما في الحقيقة تلك الخصومة كانت مع جده وليس عمه، لطالما كان عمه ذو قلب جاف وروح باردة، لا يذكر له مرة اقترب منه فيها أو أظهر له بعضًا من الحب، على عكس أباه الذي كان يتفنن في رعاية (سليم) كان في المقابل يتفنن أخوه في تجاهل ولده. أما جده فكان كأبيه تمامًا، يغدق عليه من المحبة والوداعة ولين القلب ما يغنيه عن أي محبة أخرى، كان بمثابة أبٍ ثان له، ومن أجل هذا يسعى الآن للانتقام. الأمر ليس مجرد أنهم تسببوا في مقتل حبيبته، بل لأنهم سلبوه أمانه ورحمته التي لا يعلم كيف يسترجعها مرة أخرى، ثقته التي انعدمت فيمن حوله، وقلبه الذي لم يعد قادرًا على محبة أحد سوى صغيرته (سُلاف).

تقع مقلتاه على صورة لـ (غادة) فوق مكتب أبيها، يتحاشى النظر إلى الصورة كما يتحاشى النظر إلى الأصل، رؤيتها تزعجه وتذكره بحقارته في استعمالها من أجل أهدافه، لم يحبها ولن يحبها أبدًا، يعلم ذلك. ولكي تكتمل دائرة العذاب داخل نفسه يتذكر مقدار حبها له، نعم، هو لا يكرهها وقد زادت معزتها في قلبه بعد مولد ابنتهما، ولكنها معزة ومودة امتنان لامرأة منحته أغلى شيء في دنياه، فتاته الجميلة الرقيقة، ولكن كل هذه المشاعر لا ترتقي لدرجة الحب. وفوق كل هذا يستغلها ويستغل أباها من أجل انتقامه! يا الله.. كم تغيرت يا فتى! لقد ذهبت وجاء مكانك رجلٌ آخر، ولشدة ما تخشى بقية روحك القديمة ذاك الرجل!

يدخل عليه (فاضل) بعد أن عاد من لقائه مع (حسين الذهبي) وولده، تتغير نبرة والد زوجته للأفضل معه بعد أن تيقن من نجاح خطته في نهب عائلة (الذهبي):

- والله إنك لست بقليل يا (جمال).. كل ما توقعته صحيحًا، لقد وافق جدك وعمك على عرضي، إلا أنه للأمانة لم يوافقاني بنفس الدرجة، فالحاج (حسين) كان مؤيدًا كبيرًا للأمر، بينما ولده (عادل) وافقني مرغمًا تحت سطوة أبيه. والآن، قل لي بقية الخطة كي يتثنى لي التنفيذ!

يعتدل (جمال) في جلسته ويبدأ في تولي زمام الأمور:

- اسمعني جيدًا يا والد زوجتي، لأنني لن أكرر كلماتي مرتين.. باختصار، أنا لن أخبرك سوى بما ستفعله بالضبط في كل مرة منفردة على حدى. الخطة ملكي وحدي ولا يعلم ولن يعلم عنها كاملة سواي. وإلى أن

يشاء الله رب العالمين وينتهي هذا الأمر لن تعلم غير الخطوات التي أحددها لك، هل اتفقنا؟!

فاضل:

- كيف تفعل بي هذا يا (جمال)؟ أنا والد زوجتك ولست مساعدًا لك. ألا يكفي أنني حتى الآن أطاوعك وأنت لم تثبت لي أن جدك قد سرقني بالفعل؟ إنني أطاوعك لأنني...

جمال:

- لأنك رجل طماع يا عزيزي يسعى لنهب شريكه، وقد جاءتك فرصة عمرك لإتمام عملية النهب. أما الآن فأرجوك أن تصمت وتستمع إليّ كي لا ينكشف أمرك. وبما أنك تريد معرفة كيف علمت أنك تُنهب، أنا لم أعلم بأدلة، لقد سمعت عمي يتفاخر بسرقتك وتحميلك جزءًا كبيرًا من خسارتنا السابقة قبل شراكتهم معك يا حمايا العزيز. هل ارتحت الآن!

فاضل:

- حسنًا يا (جمال)، أنا لم أقل شيئًا، ولكن على الأقل احترمني قليلًا يا بني، واشرح لي الأمر كاملًا!

جمال:

- قلت لك ستعلم كل شيء في موعده. والآن، الخطوة القادمة هي تصفية الممتلكات، (حسين الذهبي) فيما مضى كان مجرد نكرة لا قيمة له، لولا أنه تزوج جدتي -رحمها الله- ما كان ليصير رجل الأعمال الذي تراه، كل هذا الثراء من أموالها، وأنا لن أسمح بضياع حق أبي بسبب فساده. يتسلم أبي نصيبه كاملًا، وبعدها سنبدأ عملية استرداد الحقوق، وخلال ذلك الوقت سأعمل على نقلي للقاهرة، وستخبرهم أنت أن ذاك قد تم بفضل شريكك المدعو (ج)، وأنه قد نقل (سليم) من قبل بناءً على توصيتك، أما أنا فلسوف أبدي ضيقي وغضبي الشديد من عملية النقل حتى لا يُشك في أمري.. أفهمت! باختصار أريد لحياتي أن تستقر تمام الاستقرار قبل بداية العام الجديد، هل حديثي واضح؟!

فاضل:

- واضح يا بني لا تقلق.. ولكن ألا تخشى أن ينكشف أمرك؟ أنت تزورني كثيرًا، كما أنك تحيا معهم في ذات المنزل، كيف لا تفكر في مثل هذا؟!

جمال:

- أنسيت أنني زوج ابنتك وأنني لا أزورك أبدًا دون زوجتي وابنتي؟ كيف يشك أحدهم في زيارة رجل وزوجته وطفلته الصغيرة لبيت والد زوجته؟!

فاضل:

- (جمال)..اصدقني القول، لمَ تفعل كل هذا؟ لقد بيّت أمرًا بليل من أجل إفلاس جدك وعمك! أيعقل أنك تفعل من أجل فتاتك القديمة و...

لم يكمل (فاضل) حديثه حتى انتفض (جمال) من مقعده ممسكًا ثياب حماه بقوة وهو يتحدث بلهجة صارمة مخيفة:

- اسمعني جيدًا، إياك أن تسأل عن دوافعي مرة أخرى، مالك وسأعيده إليك دون جهدٍ يذكر منك. ابنتك وأعاملها معاملة الأميرات، ليس لك بعد ذلك أن تستفسر عما لم أفسره لك، أفهمت؟!

أومأ (فاضل) برأسه في خوف وطاعة لزوج ابنته، فلم يعد هناك مفر من إتمام خطته، لم يعد بإمكانه العودة إلى الوراء ولا رفض عرض (جمال)، سبق السيف العذل وانتهى الأمر.

فاضل:

- حسنًا يا ولدي، لك ما أمرت به، ولكن بالنسبة للسيد (ج) إنهم يتساءلون عن موعد لقياه متي يحين!

ترك جمال ثياب الرجل وبدأ في محاولة استرجاع هدوءه ثانية وهو يتكلم ببطء وحكمة أدهى رجال الأرض:

- أخبرهم أن السيد (ج) لا يظهر إلا بعد أن تنفذ أوامره وتُثبت له فروض الولاء والطاعة، وحتى يطمئن فؤادهم أعطهم ذاك المبلغ، فأنا أعلم بطباع جدي الدنيئة، سيصرفه المال عن معرفة المزيد.

وما لبث (جمال) أن وضع فوق المكتب شنطة صغيرة تحتوي على أكثر من مئتي ألف جنيه أمام والد زوجته ثم أكمل حديثه:

- وأخبرهم على لساني ما أقوله حرفيًا، السيد (ج) يُظهر طيبته وجديته لكم في عرضه بأن يمنحكم هذا المبلغ المتواضع كي تكملوا مشاريعكم المتوقفة دون قيد أو شرط أو ورقة واحدة تحفظ الحقوق، شريطة أن تصفى أعمال السيد (يوسف) بالشركات وأن يرحل مع عائلته خارج المدينة مع نهاية العام الجاري، كي تبدأ أعمالنا الواسعة مع بداية العام الجديد.

أشار (فاضل) برأسه في علامة على السمع والطاعة، وبينما يخفي الأموال داخل المكتب نادى (جمال) على زوجته بكل رقة ووداعة كي تحضر مع صغيرته لتودع أباها قبل العودة إلى منزلهم.

***

الزمان: **فبراير** ٢٠٢٣.

المكان: *مقابر عائلة الذهبي.. مدينة المنيا*.

ما معنى الموت؟ كيف يشعر الأموات؟ هل يعلمون حقًا بموعد الرحيل؟ هل يدركون ما يحدث من حولهم؟ هل يسمعون الصرخات والأصوات المحيطة التي ترجوهم في العودة ولو لدقيقة واحدة؟ هل يرون دموع محبيهم؟ هل يفكرون بنفس منطقنا ضائقين ذرعًا بدقات زمننا البطيئة التي تمر دونهم؟!

هل تسمع (سُلاف) صرخات أمها وجدتها وصديقتها الوحيدة؟ هل تشعر بجدها وهو يحتضنها ويبكي بمرارة وصمت؟ وهل ترى أباها وهو غير عالم بمن حوله، ينظر إلى الفراغ لا ينبس ببنت شفه، لا دموع، لا صراخ، ولا إدراك!

هل ترينني أنا يا عزيزتي؟ هل ترين دموع عمك ورفيق دربك وأخيكِ؟! هل تدرين بشيء يا (سُلاف)؟

هذا كل ما كنتُ أفكر فيه وأنا مع (جمال) نواري جثمانك الثرى.

***

الزمان: نوفمبر ١٩٩٥.

المكان: منزل سليم الذهبي.. مدينة القاهرة.

تذهب العائلة كلها للمباركة لـ (سليم) و(غالية) على ميلاد ابنتهم الصغيرة. يعد (سليم) استقبالًا كبيرًا لهم، فرحته كبيرة بمجيء ابنته لهذه الدنيا، و(جمال) بجانبه يسانده وهو سعيد حقًا من أجله، إلى أن يبدأ النقاش العائلي الذي سيغير كل شيء للأبد.

حسين:

-مبارك عليك يا حفيدي.. بما أسميتها؟

سليم:

- (جميلة)، كان هذا اختيار (غالية) وقد نال رضاي.

غالية:

- صار لدينا فتاتان كالقمر في العائلة.. أنا حقًا سعيدة بمجيئكم اليوم، لقد كنت أعاني من الوحدة طوال الشهور الماضية.

حسين:

- لن تشعري بالوحدة ثانية يا ابنتي، فقريبًا سوف ينضم إليكم (جمال) وزوجته وابنتهما.

جمال متظاهرًا بالمفاجأة:

- عما تتحدث يا جدي؟ ما الذي سيضمني إلى جانبهم في القاهرة؟ أنسيت أنني أعمل في المنيا الآن!

حسين:

- اسمعني جيدًا يا ولدي، لقد ورد إليّ بعض الأخبار بأنك ستنقل إلى القاهرة..

- مااااذا؟

نطقها الجميع وهم مدهوشون، بينما (جمال) و(فاضل) يتظاهر كلاهما بالاندهاش.

جمال:

- أي معلومات؟ عما تتكلم يا جدي؟!

عادل:

- أبي، توقف أرجوك! ليس بهذه الطريقة على الأقل!

جمال:

- عما يتوقف يا عمي؟ أنا حقًا لا أفهمكم!

حسين:

- يجب أن يعلم مني يا (عادل). اسمعني جيدًا يا (جمال) ويا (يوسف) أيضًا، لأن الأمر متعلق بكما، لقد جاءنا عرض بالشراكة من أحد رجال الأعمال الذين نثق في قدرتهم على إنجاح أعمالنا وتغييرها للأفضل. نحن في الوقت الراهن نتعرض لأزمة مالية كما حدث أيام شراكتنا مع السيد (فاضل)، ولكننا الآن نحتاج لإعادة الأمر ثانية.

يوسف:

- أي شريك يا أبي؟ ألست معكم في هذه التجارة أم نسيتموني؟ كيف لا تخبروني بموافقتكم على عرض شراكة دون علمي؟!

عادل:

- لم أوافق يا (يوسف)، يعلم الله أن السيد (فاضل) هو من اقترح الأمر، وأن أبي هو من وافقه فيه، أنا لست راضيًا!

حسين:

- سأشرح الأمر تفصيليًا، ولكن لا تتكلموا ريثما انتهي. لقد جاءني عرض عن طريق السيد (فاضل) عن شريك يعرض علينا إنقاذ أعمالنا

من الإفلاس لقاء أن نخرج شريكًا من بيننا لأنه يرى أن الشراكة مع عدد كبير الأفراد لا تناسبه. وأنه يعتقد أن أربع شركاء كافون، وبناءً عليه اتخذت قرارًا بتصفية شراكة يوسف في مجموعتنا..

كان (جمال) يُظهر غضبه مما يتكلم والسعادة تغمره داخليًا من غباء جده في عرض الأمر، ويبدو أنه كان على حق حينما توقع أن تعمي الأموال نظر جده. إلا أنه لوهلة وقعت عيناه على أبيه وشعر أن هناك خطبٌ ما سيصيبه، فارتعب لأجل ذلك.

يوسف:

- ماذا فعلت؟ أخرجتني من إدارة مالي؟!

حسين:

- هو ليس بمالك، على الأوراق أنا مالك كل شيء، إلا أنني رجلٌ صالح لا يأكل أموال الناس، فما بالك بمال أبنائه؟! أنا أحفظ حقك في تركة أمك ومال أبيك، وسأعطيك إياه بصورة أخرى. عقارات القاهرة والإسكندرية وبعضًا من الأموال في البنوك تفي بحق ميراثك وتزيد، سأعطيك إياها وترحل مع ولدك وعائلتك إلى القاهرة تقيمون جانب أموالكم.

لو أن (جمال) تمنى شيئًا آخر في هذه الدنيا ما كان ليحدث بهذه السلاسة، لقد أعطاه جده فرصة عمره في نهبه وإفلاسه، وفوق كل هذا وقيعته مع أبيه للأبد. إلا

أن المشكلة الوحيدة التي كانت تواجهه هو حالة أبيه المخيفة. لم يسبق له أن رآه حزينًا وغاضبًا لتلك الدرجة، رغم ما يبديه من ثبات. بدأ (سليم) يشعر باحتدام الموقف فأشار لزوجته وأختها أن تنسحبان مع الطفلتين، ولاحظتهما أمي فقررت مرافقتهم مع (أحمد)، ثم بدأ (سليم) في حديثه لجدي:

- جدي، من فضلك، نحن لا نفهم شيئًا، كيف تقرر رحيل عمي وعائلته إلى القاهرة هكذا فجأة؟ ألا تذكر ما ألمَّ بنا سابقًا، إن افترقنا هذه المرة لن نجتمع ثانية.. بابا، قل شيئًا أرجوك!

بدأت الأنظار تتجه إلى (عادل الذهبي)، والذي كان لأول مرة في عمره مظلومًا غير موافق على مخططات والده، ولكن لا أحد يصدقه أبدًا نظرًا لماضيه الشائن في حياكة الألاعيب على من حوله.

عادل:

- أنا لست موافقًا يا ولدي، أقسم بالله أن هذا ليس قراري، أنا مرغم مثلي مثلكم.

جمال:

- حقًا يا عمي! ترحلونني من بلدي وتنتزعون حق أبي وتقول أن لا شأن لك؟ من صاحب الشأن؟ قل لي!

عادل:

- (جمال)، صدقني يا ولدي أنا...

جمال:

- لست بمصدقٍ لكما بعد الآن، أنا من أخطأت بالعودة، والآن عليّ أن أتحمل عاقبة غفراني لمن لا يستحقون.

يوسف:

- توقف يا (جمال)، لم يعد هناك ما يمكن قوله.. توقف يا بني.

قالها أبي وهو يمسك بيد (جمال)، ثم ما لبث أن سقط على الأرض بعدها فاقدًا للوعي.

***

الزمان: فبراير ٢٠٢٣.

المكان: منزل عائلة يوسف الذهبي.. مدينة المنيا.

البكاء يعلو صوته في أرجاء المنزل، بكاء مؤلم يتضح منه وجيعة أصحابه، لا هو بالصراخ ولا هو بالبكاء الهادئ، وإنما الأمر ما بين بين.

في بهو البيت، تجلس السيدات مصدر البكاء الأساسي، بجانبهن (يوسف الذهبي) يبكي بلا صوت، وأمامه أجلس وحدي وكأنما الدمع قد جف من مقلتي وحل مكانه الغضب والألم الشديد. يدخل (جمال) وحده من المنزل عائدًا من قبر ابنته بعد أن رفض المغادرة مع عائلته فور انتهائهم من عملية الدفن، وآثر أن يبقى قليلًا بجانبها يُحدثها وحده. وبرغم من أنني لم أرَه إلا قويًا منذ ولدت، كانت هذه هي المرة الأولى التي أراه فيها والهزيمة تعلو وجهه. لم ينطق بكلمة واحدة، ورأيته يصعد وحده نحو غرفته.

- جمال!

صرخت (غادة) وهي تنطق باسم زوجها، وفي جزء الثانية انقضت ممسكة بسكين أخفته بين طيات ملابسها. ارتعبت أمي وزوجتي وهرعتا صارختين في محاولة لإيقافها، بينما هممت أنا وأبي لإمساكها قبل أن تطعن زوجها فعليًا،

و(جمال) ثابت في مكانه لا يتحرك وكأنه ينتظر طعنة في القلب تريحه من آلامه للأبد.

- لا أريد لأحد أن يتدخل.. اتركوها! قلت لكم اتركوها! هيا يا (غادة) افعليها، أريحيني مما أشعر به الآن..

كان (جمال) يرجوها فعليًا أن تقتله، بينما ينظر إليها وهو متورم الوجه من كثرة البكاء والنحيب. تنهار (غادة) وتسقط أرضًا غير قادرة على الحركة وهي تردد دون وعي:

- هل تشعر بالرضا الآن؟ لقد قتلت ابنتك وزوجها يا (جمال)؟ أصبحت ابنتها بلا أب وأم! لقد دمرت أسرة ابنتك كما دمرت أسرتك من قبل.. أنت من فعلها، أنت من أفلس العائلة وفرق شملها. سنوات وأنت تدعي أن أبي السبب، أحيا معك كالأسيرة، ولكنني كنت أصمت من أجل فتاتي الصغيرة، كنت أوهم نفسي أنك على الأقل أبٌ جيد لن يسمح بإيذاء ابنته. لمَ سأصمت الآن؟ لقد حان وقت الاعتراف بكل شيء.. الموت رحمة لك يا (جمال) وأنا لن أرحمك بعد أن أدخلت ابنتي للتراب. عقابك سيكون بسرد الحقيقة كاملة.

***

الزمان: *نوفمبر* ١٩٩٥.

المكان: *بيت يوسف الذهبي.. القاهرة*.

دخل (يوسف الذهبي) البيت ممسكًا بيد ولده، جلس في هدوء محاولًا الاعتدال في جلسته على السرير وأمامه (جمال) ينظر إليه نظرة حب ممزوجة بالألم.

يوسف:

- لقد اتعبتك معي كثيرًا يا بني. أنت معي منذ أسابيع لم ترتح أبدًا.. أشعر بالأسى لأجلك.

يُقبل (جمال) يد أبيه بينما الدموع تنساب على وجنتيه وهو يرى والده أمامه طريح الفراش وقد فقد الكثير من صحته ووزنه.

جمال:

- لا تكرر هذا ثانية يا أبي، أنا المخطئ، سامحني، أنا ناشدتك الله، لم أكن أعلم ما سيحدث لك!

كان (جمال) نادمًا وعلى وشك إخبار والده بكل شيء، إلا أن (يوسف) لم يفهم مقصده وفسره على أنه يشعر بالذنب بسبب جداله مع جده الذي نتج عنه مرضه.

يوسف:

- أنا من يجب عليه الاعتذار يا ولدي، أنا من فعل بك هذا يا صغيري، لم أكن أبًا جيدًا، تركتهم يحرقون قلبك، لم أستطع حمايتك ولا حماية الفتاة التي تحبها.. سامحني، أرجوك!

بدأ الاثنان في البكاء بحسرة وألم، كلاهما شاعر بالذنب، وكلاهما يتحمل جانبًا كبيرًا من الخطأ. لقد صمت (يوسف) على عجرفة والده وتكبره حتى رحل كالغريب من بيته وأرضه، بينما بدأ (جمال) بالانتقام على صعيد آخر محققًا لذاته ما لم يستطع والده أن يمنحه إياه، الأمان. إلا أن حديثهما قد قطع حينما دلفت إلى الغرفة، كنت قد جاوزت العامين بقليل، إلا أنني أذكر اشتياقي لأبي عند غيابه في حينها، وكانوا طوال الوقت يخبرونني أنه مسافر، كما نفعل مع (كرمة) الآن. إلا أن الفارق الوحيد بيني وبين الصغيرة أن أبي قد عاد، أما هي فلم يعد والداها ثانية.

حملني (جمال) واضعًا إياي بين أحضان أبي الذي أمطرني بالكثير من القبلات ليعوضني عما فقدته من حنانٍ في غيابه. بينما انصرف (جمال) متظاهرًا بجلب أمر ما، إلا أنني بعد هذه السنوات أدرك أنه انسحب لعدم قدرته على رؤية أبي وهو منكسر حزين، أدرك بعد هذه السنوات أن ذاكرة الأطفال صادقة لا تشوبها

شائبة، فهي تحفظ كل الأحداث والتواريخ كما هي، وتترك أمر التحليل والفهم بمرور سنوات العمر.

بعد وقتٍ قصير قضيته رفقة أبي، جاءنا (سليم) وهو يحمل في يديه مظروفًا فيه أوراق لملكية العقارات التي تكلم عنها جدي سابقًا. كان (سليم) يخشى غضب أخي (جمال) وعودة القطيعة ثانية بينهما. إلا أن (جمال) تعهد له ألا يتكرر الأمر ثانية وأنه صار على يقين الآن أن الملام الوحيد هو جده وعمه (عادل)، حاول سليم أن يدافع عن والده وتبرئته، وكان (عادل) صادقًا بالفعل هذه المرة. إلا أن (جمال) قد أعد للأمر جيدًا بحيث لا يبقى في نفس أبيه من شك تجاه خيانة أبيه وأخيه. انصرف (سليم) بعد أن اطمأن على عمه، ثم همّ (جمال) بالرحيل هو الآخر.

- إلى أين يا بني؟
- لدي بعض الأعمال في المنيا يا أبي، لقد رتب جدي لنقلي كما تعلم ولم تفد تظلماتي بشيء. والآن عليّ العودة لإحضار بقية أوراقي وما أملك في مدينتنا، وسأمر بالبيت لأحضر كل ما تبقى لنا هناك.
- (جمال)، لا تشتبك مع جدك وعمك يا ولدي، أنجز عملك وعد من فورك!
- لا تقلق يا أبي، لن أفعل، سأعود إليك خلال يومين سأمكث فيهما في بيتنا نحن لا بيت جدي. أتركك في حفظ الله حتى أعود.

قبّل (جمال) يد والده، وودّع أمه وزوجته، ولم ينساني أنا و(سُلاف)، فلم يرحل دون أن يحملنا بين أحضانه.

عند وصوله إلى بيت العائلة، جمع آخر ما يخصه هناك وهمَّ بالرحيل، لم يكن جده ولا عمه بالمنزل، وكان يعلم ذلك عند ذهابه. ساعده بعض الخدم في حزم ما تبقى له ولعائلته من أمتعة وأوراق، وحينما همَّ بالرحيل وجد عمه أمامه.

- أنت من فعلها يا (جمال)؟ أنت شريكنا الجديد يا ابن أخي! أم أقول يا سيد (ج)؟

تباطأ جمال في وضع متعلقاته بالسيارة وهو يبتسم في لا مبالاة ناظرًا إلى عيني عمه.

- عن أي ألغاز تتحدث يا عمي في هذا الوقت؟ ألا يكفيني نقل أبيك لي وغربتي بين البلدان؟! اتركني إلى حيث أمضي ولا تعترض طريقي من فضلك. تركنا لكم كل شيء، ألا يكفيكم؟!
- أنا آسف يا (جمال)! لم أكن أعلم أنك تحبها لتلك الدرجة يا ولدي! عاقبني أنا يا (جمال)، أنا من أفسدت كل شيء، ولكن لا تدمر العائلة كلها من أجل ثأرك معي! لا ذنب لجدك، أنا المخطئ.. توقف يا (جمال) أرجوك، لم أقتلها، أقسم لك أنني لم أفعل. أنا أحبك يا بني، فأنت أول حفيد في هذه الأسرة، حينما ولدت تغيرت حياتنا جميعًا، كنت أرى فيك الأمل لحياة أفضل وأكثر عطفًا وحنانًا، بعد ولادتك توسعت أعمال

العائلة وكثر الرزق فيها، أعلم أنني لم أخبرك مسبقًا بهذا، ولكنني خضعت لمعيشة قاسية يا (جمال)! أنا وأبوك فقدنا أمنا باكرًا وتولى جدك رعايتنا، صحيح أنه لم يؤذنا يومًا، إلا أنه لم يحيطنا بالرعاية أيضًا، تعلمت منه أصول التجارة فقط ولم أعلم معنى أي شيء آخر. تزوجت حينما كبرت ابنة عمي اليتيمة، وأنجبت منها (سليم)، لقد أحببتها كثيرًا، يعلم الله، كُسر فؤادي لموتها، لم أخبر مخلوقًا بهذا أبدًا حتى اليوم، أغلقت قلبي بعدها، أغلقته حتى على ابني وحيدي، وأغلقته عليك أيضًا، أحببتكما، نعم، لكني لم أصِر الأب الذي يستحقه كلاكما يومًا. (يوسف) صار ذاك الأب، أتعلم يوم رفعت يدي عليك لأنك أصررت على الزواج من (بسمة)، لم أفعل لأنك عارضتني لا! فعلت لأنني خشيت عليك من عاقبة ذاك الحب. كانت اللطمة لتنبيهك لا لإيذائك، حتى زواجك أنت و(سليم) من بنات (فاضل) أردت حدوثه من أجل حفظ أموالكم أنتم، أنتم الباقون ونحن الراحلون يا (جمال). أخطأت يا ولدي فيما فعلت، والآن لا أطلب منك الغفران، كل ما أطلبه أن تعاقبني وحدي. أعلم أن بداخلك بقايا من الفتى القديم بريء القلب.. لا تستجِب للشيطان وتفرط في عائلتك يا (جمال).. تخلى عن المدعو (ج) قبل فوات الأوان يا بني! أعلم أن كلاكما نفس الرجل وإن لم أمتلك دليلًا واحدًا..

كان (جمال) يعطي عمه ظهره في أثناء الحديث متظاهرًا بترتيب أغراضه داخل السيارة، لذلك عندما سالت عبراته على وجنتيه وزال حقده قليلًا وظهرت بقايا روحه الطاهرة على تقاسيم وجهه الحزين، لم يستطع عمه أن يراه لحظتها. ولكن سرعان ما انتبه لنفسه، واشتد طوله وصلب ظهره استعدادًا لمواجهة عمه.

- يبدو أن السيد (ج) هذا هو شريككم الجديد، لمَ لا تخبر أباك بشأن مخاوفك منه؟!
- يعميه المال كما يعميك الانتقام!
- وفقكما الله لما تستحقانه!
- (جمال).. هناك دائما فرصة أخيرة!
- لم يتوفر لي ولا لـ (بسمة) أي فرصة، هذا ما جنيتموه عليّ، وما جنيت على أحد.

***

الزمان: فبراير ٢٠٢٣.

المكان: منزل يوسف الذهبي.. مدينة المنيا.

الجميع ينظر نحو (جمال) في ذهول ودهشة بينما هو يردد كلماته الآتية:

- نعم أنا من فعلتها، أنا من أفلست (حسين الذهبي) وولده (عادل) بمساعدة (فاضل) والد زوجتي. أتعلمون لماذا فعلت؟ لأن جدي وعمي سرقا (فاضل) من قبل، سرقاه حينما أفلسا للمرة الأولى، ولم أفعل سوى أن أعدت له ماله ثانية ولكن على طريقتي الخاصة. أقنعت (فاضل) أن يقنعهم بوجود شريك آخر، اسمه المستعار السيد (ج)، وهو تاجر مخدرات وسلاح، والحقيقة أن الحاج (حسين) وافق على العرض فورًا ولم يتردد لحظة واحدة في عرضي، حتى حينما أخبره (فاضل) أن شرطه الوحيد هو نزع أبي من الشركة وافق ولم يتردد في طرد ولده وعائلته. ما فعلته بعدها أنني أغريته بالمال حتى جاء وقت شراكتنا الوهمية في إحدى العمليات، حينها جعلت أبيكِ يسترد ماله كاملًا ولم يكن هناك أي شهود أو دلالات أو أوراق تثبت وجود السيد

(ج). وأنتِ الآن ترفعين عليّ السكين بعدما رددت لأبيكِ ماله؟! هل ارتحتِ الآن يا (غادة)؟ أنا لم أفعل سوءًا تجاه والدك أو تجاه غيره، لقد أعدت له ماله من مغتصبيه، لست مسؤولًا عن وفاة أختك وأبيكِ فيما بعد، لقد ماتا قضاءً وقدرًا.

كنت أشعر بأنني أنا من يريد ضرب أخي بالسكين حرفيًا في تلك اللحظة، حتى أخرجتني من خيالاتي صوت لطمة مدوية من أبي لـ (جمال) على وجهه جعلتنا نهتز جميعًا، حتى امرأته التي كانت تود طعنه من لحظات لم تتوقع ذلك من والد زوجها.

- لست مسؤولًا أيها الكلب؟ تقف أمامنا الآن وتقول أنك لست مسؤولًا! لقد تسببت بوفاة جدك وأخت زوجتك وحماك وعمك وولده وحفيدته، والآن ابنتك وزوجها. لقد أورثتنا العداوات من أجل ثأرك القديم، مَن تظن نفسك حتى تخدع الناس وتُزين لهم الحرمات، حتى إذا ما ارتكبوها انقضضت عليهم بعقابك وغضبك. من أنت يا هذا حتى تعيد توزيع الثروات؟ حتى وإن صدق حديثك وسرق جدك وعمك، أين برهانك ودليلك؟! كيف فعلت ما فعلت؟! وتأتي الآن بعد دفن ابنتك وتصرخ بنا بأن لا ذنب لك! تنتظر موت من أيضًا حتى تعترف بما فعلت! لعنك الله ولعنني معك!

كان أبي يهز (جمال) ويصدمه بالحائط أثناء حديثه، وهو صامت كالأموات لا يتحرك، ينظر بعينيه إلى الفراغ، بينما وجهه المتورم يقطر دمًا. تركه أبي بعد أن أبعدته أمي عنه محتضنة إياه وهي تردد باكية في مرارة وحسرة:

- كيف فعلت بنا هذا؟ كيف؟!

بكي أبي كما لم أره يبكِ في عمره كله، ولم يقاطعه سوى صرخة أمي المدوية وهي ممسكة بأيدي (جمال) التي صارت في برودة الثلج بينما هو غائب عن الوعي بين ذراعيها لا يدري من نفسه شيئًا.

***

الزمان: ديسمبر ١٩٩٥.

المكان: بيت عائلة الذهبي.. المنيا.

يحضر جميع أفراد العائلة لحضور مراسم وفاة (حسين الذهبي)، يقف (يوسف) مذهولًا لا يعلم كيف مات أبوه هكذا فجأة؟ كان هو المريض ووالده بجانبه من عدة أيام، صحيح نشب بينهما خلاف وصحيح أنه مرض بسببه، ولكن أن يموت ويتركه هكذا فجأة دون مبرر! كيف؟!

يندم (يوسف) ويبدأ في الشعور بالذنب الشديد، ورغم كل ما ناله من أبيه في أيامه الأخيرة إلا أنه يفتقده ويحزن لأجله أشد الحزن. بينما (جمال) ثابت لا يبدي حزنًا أو فرحًا (سليم) حزين على جده و(عادل) غاضب لأقصى درجة. تنتهي المراسم وتعود العائلة كلها إلى البيت، وما إن يخلو البيت من الغرباء حتى يفاجئ (عادل) العائلة كلها وهو يرفع السلاح بوجه ابن أخيه. تصرخ النساء ويهرول (يوسف) لينقذ ولده، حتى يوقفه صوت (عادل) مرددًا:

- إن تحركت قيد أنملة سأرديه قتيلًا أمامك في الحال! لا يقترب أحد منكم وإلا فجرت رأسه!

يبتسم (جمال) وهو يضع يداه في جيب بنطاله، ويقف مبتسمًا ابتسامة مُنتصر في وجه عمه وكأنه يدفعه لإطلاق النيران عليه دفعًا.

عادل:

- طابت نفسك الآن، اشتركت مع ذاك الكلب (فاضل) وقتلت جدك، سلبته ماله وحياته، هل هذا انتقامك؟! قلت لك جدك لم يفعل شيئًا، قلت لك عاقبني أنا! أيها الولد العاق، هل أحببت تلك الفتاة لدرجة أن تحرقنا كلنا لأجلها! سأقتلك كما قتلت أبي يا (جمال)!

وبينما يستعد (عادل) لإطلاق النيران على أخي، وقف (سليم) أمام أبيه فجأة.

عادل:

- ابتعد يا (سليم).. ابتعد عن ذاك الكلب.

سليم:

- إن أردت قتله فلتقتلني معه، هل سمعت؟! ألا تكتفي مما تفعله بمن حولك! لن أتحرك من حيث أقف.. اقتل كلانا إذا أردت.
- ابتعد يا (سليم)، لا شأن لك أنت.. حسابي مع أبيك قد حان.

رددها (جمال) آمرًا (سليم) بالتحرك، وما هي إلا ثانية حتى هوت أمي بإحدى التحف الفنية فوق يد عمي ليسقط منه المسدس ويمسك به أبي. كانت الضربة قوية لدرجة أن يد عمي قد كُسرت. لا تعلم أمي كيف فعلتها حتى الآن،

إلا أنها في كل مرة تروي فيها الأمر تُكرر جملة واحدة: "وقت الخطر تقدم الأم على فعل أي شيء من أجل حماية أبناءها، حتى وإن اضطُرّت للقتل".

حينما شُفي عمي بعد تلك الحادثة، نطق بجملة واحدة لأبي:

- لقد أخذت أنت وولدك ما يكفي، وقبل موته ملكني أبي ذاك القصر وما بقي من أعمال. لا أريد رؤية ذاك الشيطان الذي أنجبته مرة أخرى، وليتكفل بالقصاص منه رب السماوات والأرض.

فجأة، تدهورت صحة عمي (عادل) كثيرًا، وصار شبه قعيد لا يقوى على الحركة دون عصا يتسند عليها. صفّى بقية أعماله، ووضع أموالها وديعة في إحدى البنوك ليحيا منها. قاطع (فاضل) منهيًا الشراكة بينهما ونعته هو وبناته بأقذع الألفاظ، خاصة (غالية) متهمًا إياها بمساعدة أختها وزوجها في الاستيلاء على أموال أبيه. وأشاع عنهم كل ذلك بين أوساط الناس في المدينة. وعندما استعانت بـ (سليم) حتى يقف أمام أبيه مدافعًا عنها وعن عائلتها صمت مؤيدًا رواية أبيه. لم تتحمل (غالية) زوجة (سليم) كلمات حماها وصمت زوجها المغزى، ولم يقدر (سليم) على رؤية والده وهو ينهار صحيًا أمامه. صدّق أباه وتصدعت علاقته بزوجته التي واجهت أباها بدوره لينكر ما حدث طوال الوقت مردًا ما لقنه إياه (جمال)، أنه كان هناك شركاء كثر يودون العمل معنا إلا أنه لم تتم أية تعاقدات مع أحدٍ منهم، وتسوء علاقته بابنته على إثر ذلك.

تمرض (غالية) مرضًا شديدًا لا يجد له الأطباء تفسيرًا سوى سوء حالتها النفسية، يدرك (سليم) متأخرًا فداحة ما حدث بعد أن أقنعه (جمال) أن أباه كاذب كالعادة ولا دليل على ما قاله سوى تخريف جده قبل الوفاة، خاصة أنه لا يوجد أي إثبات على وجود المدعو (ج) الذي يتردد صداه دائمًا على لسان أبيه. وبدأ في استخدام أمر خطف وقتل (بسمة) التي رأياها معًا آخر مرة وهي تخشى بطش (عادل الذهبي) وأباه. صدقه (سليم) حينما تذكر غدر أبيه في الماضي. حاول فيما بعد إصلاح علاقته بزوجته، إلا أن المرض كان قد تمكن منها نهائيًا. وفي إحدى الليالي، و قبل أن تكمل صغيرتهما (جميلة) العام الواحد تتوفى (غالية) وهي نائمة نتيجة قهرتها من زوجها ووالده. يندم (سليم) أشد الندم على ما فعل، .ويزداد غضبه تجاه أبيه الذي ساهم في إفقاده صوابه وزوجته التي أحبها كما لم يحب أحد، إلا أن تدهور حال أبيه أرغمه على العودة للحياة معه في المنيا مرة أخرى. يشعر (فاضل) بعد ذلك أنه قاتل ابنته الصغرى.

وفي إحدى الصباحات الممطرة، في نهاية عام ١٩٩٦، ينظر (فاضل) إلى عيني ابنته الأخرى ويطلب منها العفو لأنه وافق على زواجها من شيطان، ثم يغلق عينيه للأبد.

تستقر أسرتنا في (القاهرة)، وتبقى العلاقات موصولة بين العائلتين دون (عادل). يكبر ثلاثتنا معًا، (أنا وسُلاف وجميلة). في مرحلة المراهقة أصادق (رامي)، تنشأ علاقة ودودة بيني وبين عمي، لا أرى منه إلا وجه الرجل الطيب طريح الفراش المستند دائمًا على عصاه. يحاول (جمال) إخافتي منه طوال الوقت إلا

أنه يفشل في إفساد علاقتنا ببعضنا البعض. تمر الأيام، ألتحق مع (رامي) بكلية الحقوق، تلتحق (سُلاف) بكلية الطب ويبدأ شغفها بأمر الكتابة، وسرعان ما تصير روائية مشهورة. تلتحق (جميلة) بكلية الصيدلة. بعد الانتهاء من الكلية يصارحني (رامي) بمحبته لـ (سُلاف)، كان من عائلة صغيرة لا أحد لديه سوى عمه، ومن وجهة نظر (جمال) كان اختيارًا مناسبًا من جميع النواحي، فتى يتيم لا عصبة له ولا أهل، يمكنه التسلط عليه كيفما شاء، بالإضافة لرضا ابنته عن الأمر، لم يكن ليرفض أبدًا. كنت أعلم أنها زيجة مناسبة لعقلية رجل مثله، وما لبث فعليًا أن بدأ في التسلط عليهما بعد إتمام الزيجة، لم يوقفه سوى وفاة عمه وعائلته، تغير كل شيء بعدها، علاقته بي، وبزوجته، حتى (سُلاف)، كُسر بيننا جميعا شيءٌ ما ولم نستطع تجاوزه أبدًا.

في وقت سابق، كنت أرى (جمال) كأب حقيقي لي، لم تكن علاقتي بـ (سُلاف) علاقة عم بابنة أخيه، كانت أختي، وكذلك كانت (جميلة)، لذلك عندما نشب بيننا خلافٌ كبير فور مقتل عائلتنا لم أستطع الغفران له، كنت أعلم منذ زمنٍ بعيدٍ أنه المسؤول عما حدث وسيحدث من خراب. وفي ذاك الحين رأيت حب العمر (منال)، كانت صاحبة دار نشر وصديقة جديدة لابنة أخي، بدأت علاقتنا في إحدى حفلات توقيع روايات (سُلاف)، كانت تناقشها باهتمام وحماس لم أرَه في امرأة من قبل، وبعدها تعاقدت معها على عدة أعمال وحققوا جميعا نجاحًا باهرًا لا مثيل له. حتى قالت (سُلاف) ذات يوم أنها تخشى غضب بقية كتاب الدار منها من كثرة اهتمام (منال) بها، ولكن (منال) كانت دائمًا تردد أنها لم ترَ كاتبة مثلها، ولا

تريد أن ترى غيرها. ولأول مرة في عمري كله أشعر بالوصال تجاه سيدة ما. في قرارة نفسي تيقنت أن تلك المرأة قريبة مني لدرجة كبيرة، وكأننا قد التقينا من وقت طويل، كان عليّ أن أستمع إلى ذاك الشيء، ولكن بدلًا من أن أفعل تعمقت علاقتنا أكثر. وبعد ولادة (كرمة) بوقت قصير أخبرت الجميع أنني عازم على الزواج مغادرًا ذاك البيت للأبد.

- لم يعد يمكنني أن أحيا مع ولدكم بعد ما تسبب فيه من خراب، سأتزوج وأحيا بعيدًا.

لم أشاورهم في الأمر، لم أتألم لرؤية أبي وهو صامت، لم أتوقف لدموع أمي. ولكن شيء ما مزق نياط قلبي وألزمني مكاني، حدث هذا عندما تلاقت عيناي مع عيني (جمال)، كان مستندًا على باب غرفته ومقلتاه تفيضان دموعًا وأسى.

هل يمكن أن أكون قد أحببت (جمال) أكثر من الجميع؟!

ربما..

***

الزمان: فبراير ٢٠٢٣

المكان: إحدى مشافي مدينة المنيا.

أصيب (جمال) بغيبوبة سكر شديدة، لم نكن نعلم أنه مصاب به من الأساس، ورغم كل غضبي منه إلا أن هاجس موته وفقدانه للأبد كاد أن يصيبني بالجنون. ورغم محبتي الكبيرة لأبي وقع في نفسي منه بعض من اللوم. نعم، (جمال) أخطأ، ولكن رد فعله جاء في وقت قاس جدًا.

- كيف تفعل ما فعلت؟ أتراه ولدًا أمامك؟ كيف تضرب ولدك الذي تجاوز الخمسين من العمر؟ وتفعل ذلك به بعد أن فقد ابنته! ألا يكفيني ما تعرض له ولدي طوال عمره من بطش عائلتك؟ أنت لم تستطع أن تحميه، تحزن على أبيك كثيرًا، ألا تحزن بنفس المقدار على ولدك المكلوم!

كانت أمي تصرخ بأبي وهو يقف في أحد الأركان مكسورًا ونادمًا على ما اقترفت يداه. يعلق أبي بصوت مهزوز ونبرة مستاءة:

- لم يخبرني بمرضه يا (نادية)..

- ولماذا يخبرك، هل نفعه إخبارك بشيء طوال عمره؟! أقسم بربي وما أعبد، إن تعرض له أحد بالكلمات أو الفعل لأكونن قاتلته بيدي، لا شيء عندي أغلى من ولدي الكبير، يكفيني موت (سُلاف) أنا لن أخسرهما مرة واحدة من أجلكم. ارحلوا الآن!

أصيبت بأمي بحالة هيسترية وصارت تصرخ فينا جميعًا أن نرحل ونتركه. بصعوبة حاولت (منال) السيطرة عليها، كنت ممتنًا لزوجتي في تلك الأيام أكثر من أي وقتٍ مضى، رغم قلة ما تفعله إلا أنه كان مؤثرًا. محاولة تهدئتي الدائمة، عنايتها بـ (كرمة)، مساندتها لي في محنة موت (رامي) و(سُلاف)، كنت أراها ملاكي الحارس الذي لم ولن أحظى بأفضل منه طوال حياتي.

قطع الطبيب جدالنا وأعلن أن حالة (جمال) قد صارت مستقرة الآن، وأنه لا حاجة لوجودنا بالمشفى، وطلب منا أن ندعه يرتاح ولا نعرضه إلى أي ضغوطات أو أخبار سيئة. أخذت أمي تحمد الله كثيرًا وكذلك (غادة)، فبرغم كل شيء هي لا ترغب في فقد زوجها وابنتها في آنٍ واحد. بدأت أرى أبي وهو غير قادر على التحمل، واعتقدت حينها أنني إن لم أذهب به إلى البيت فسوف يقع له مكروه في ذاك المشفى. وعلى إثر ذلك انتزعته برفق من الوسط تاركًا (منال) مع أمي وزوجة أخي.

عند وصولنا إلى البيت، انهار أبي تمامًا وهو يلوم نفسه لما فعله بـ (جمال)، كان يعتقد أن اللطمة التي أوقعها على وجهه هي ما هزمته وأمرضته هكذا.

- كيف فعلت هذا في ولدي الكبير؟! كيف أهينه وأضربه يوم وفاة ابنته هكذا؟! أين كان عقلي؟!

أخذ يردد هذه العبارة في أسى ومرارة، وكان اعتقادي أنا أنه كان سيصاب لا محالة بأزمة صحية نظير ما تحمله في الفترة الأخيرة وما انتهى إليه الحال بوفاة (سُلاف). حاولت تهدئته وطمأنته أن (جمال) لن يموت بسبب لطمة على وجهه، وأنه علينا أن نتماسك من أجل (كرمة) التي تركناها وحيدة في منزل كبير لا يرعاها داخله سوى عدد من الخدم. وقد صار لزامًا علينا أن نرضى بقضاء الله وقدره ونتوحد من أجل تلك الصغيرة. وفي أثناء حديثنا سمعت طرقًا على الباب، وإذ به الضابط (يوسف).

- حمدًا لله على سلامتك يا ولدي، لمَ كلفت نفسك عناء السفر ليلًا إلى المنيا؟

رحب أبي بالضابط (يوسف) وكان قد تعرف عليه وقت مقتل عمي وعائلته قبل سنوات، وشهد مدى قربه من (جمال) من وقتها وحتى اليوم. كانت (سُلاف) قد أخبرتني وقتها أن أباها يحبه لأنه يحمل اسم أبيه وبعض صفاته. إنه يراه ضابطًا كفئًا، ربما لأنه كشف له خديعته في صاحب عمره. أنا حقًا أشفق على أبي. أعاده صوت الضابط من خيالات الماضية حينما طلب منه الإنصات لما سيقوله الآن لأنه يعلم مدى صعوبته على نفسه.

- سيد (أحمد)، أعلم أن ما سأرويه الآن سيصيبك بحالة من الصدمة والذهول قد لا تتعافى منها أبدًا، ولكن أرجو أنه ما زال هناك بعض من وقت لإيقاف ما هو أسوأ..

كان يُظهر أثناء حديثه الكثير من الاضطراب والقلق، لكنني أوعزت ذلك لاضطرابه بعد وفاة (سُلاف) وفشلهم في التوصل للقاتل حتى الآن.

- (جمال) في المشفى الآن بعدما ما ألم بابنته، و...

قاطعني مكملًا:

- أنا أعلم ما حدث، وأعلم أين حضرة المحقق الآن، وهناك قوة ليست هينة تؤمنه حيث هو مع زوجته والسيدة الوالدة، كما أن هناك قوة في منزلكم بالقاهرة تحرس (كرمة) هي الأخرى.
- لمَ لم تذكر (منال) يا سيد (يوسف)؟ كانت معهم أيضًا! هل صار لها شيء؟!
- اسمعني جيدًا.. قبل عدة أيام من وفاة السيدة (سُلاف) -رحمها الله- توقع السيد (جمال) أن مرتكب واقعة قتلها مرتبط بطريقة ما بمقتل عائلة السيد (عادل الذهبي) منذ أعوام مضت. وبالفعل بحثت عن ذاك الخيط، واختصارًا لما حدث تتبعت تاريخ (كوثر القاضي)، الضحية الأولى في سلسلة الجرائم الماضية، وتوصلت إلى أنها قد أنجبت بطريقة غير شرعية فتاة صغيرة، وبتتبع تلك الفتاة وأثرها علمنا أنها قد ألحقتها طيلة عمرها بمدرسة داخلية حتى لا يعلم عنها أحد. هذه الفتاة لم

تسجل باسم والديها الحقيقي، لقد نسبتها والدتها إلى والد ووالدة مزيفان على الأوراق، ولكن قبل وفاة الوالد الحقيقي علم بوجودها، وتقابلا مرة واحدة. أتعلم من ذاك الوالد؟ إنه عمك.. (عادل الذهبي)، وهذه صورته مع ابنته و... زوجتك.

لا يفقد الإنسان وعيه عند إغماءه فقط، أحيانًا يفقده وهو مستيقظ أيضًا. لا أعلم كيف وصلت إلى المشفى حيث يرقد (جمال)، لا أتذكر كلمات أبي وأمي وزوجة أخي، لم أسمع أيًا منهم، كل ما كنت أفكر فيه أنني رجل مخدوع، تزوج ابنة عمه غير الشرعية، ابنة عمه التي استخدمته من أجل انتقامها، ابنة عمه التي قتلت ابنة أخيه وصديقه، ابنة عمه التي شعر للوهلة الأولى أن بينهما رابط ما منذ وقع بصره عليها، ابنة عمه هي حبيبته الخائنة التي فرت هاربة من المشفى تاركة إياه بعد أن أنهت جرائمها.

بدأ (جمال) يعود إلى وعيه وعلم بما حدث. ظل ساكنًا لفترة طويلة قبل أن يطلب منا جميعًا أن نتركه وحده.

- نحن نبحث عنها في كل مكان، أنا متأكد أنها لن تغادر المدينة.

هكذا ردد الضابط (يوسف) قبل أن يذعن لأمر أخي ويغادر معنا الغرفة.

- كيف تركتكم ورحلت؟!

تساءلت في عدم تصديق لما يحدث حولي.

- لا نعلم ما حدث يا (أحمد)، فجأة تعللت بالخروج لمهاتفتك والاطمئنان عليك ولم تعد. ظننت أنها رحلت لك وستعود قريبًا إلى أن أتى الضابط (يوسف) وبقية أفراد الشرطة إلى المشفى. طوال هذا الوقت كانت قاتلة حفيدتي تحيا معنا وتنام في فراش ابني!

كانت أمي لا تصدق هي الأخرى ما يحدث معنا، أما عن (غادة) فكانت صامتة لا تبدي أي ردة فعل، ثم تحركت في وهن ناحية غرفة زوجها.

- لا تقلقوا، كما أخبرتكم لن يحدث شيء، (كرمة) في أمان الآن، الحرس لا يحيط بالبيت وحده بل بغرفتها أيضًا. والحمد لله أنني أسرعت في نجدة السيد (جمال) قبل أن يناله مكروه و...
- جمال !

قاطعتنا صرخة (غادة) لنهرع إليها ونجدها تصرخ وتبكي وبيديها ورقة صغيرة وأخي غير موجود بالغرفة. أكملت صارخة:

- (أحمد)، أعد أخاك أرجوك.. أنا أحبه لم أقصد إيذاءه، لقد أعماني موت ابنتنا!

أمسكت الورقة من يديها وقرأت عليهم ما كتبه (جمال):

«غادة.. أنا أحبكِ كثيرًا، أنتِ زوجتي ووالدة ابنتي الوحيدة. يعلم الله كم أحببتك وأحببت ابنتنا، لقد أعماني الانتقام ونسيت أنه دائرة لا تنتهي. أنا أعلم أين

(منال)، سأسلم لها نفسي لتأخذ ثأرها مني وينتهي الأمر. أخبري أبي وأخي ندمي على ما فعلت، وأني أسألكم جميعًا الغفران لي. أعتذر على كل ما فعلته بكم.

اعتنِ بـ (كرمة).. الوداع يا عزيزتي».

صرت أبكي كالطفل الذي فقد أباه، بينما الضابط يأمر العساكر بالتحرك نحو أحد منازل المدينة.

- لا تقلقوا، أنا أعلم مكان سيادة المحقق. من بيت (كوثر القاضي) بدأ كل شيء، لقد قال لي ذلك، ولا بد أنه ظن أن النهاية ستكون هناك أيضًا.

انتشلتني عبارة (يوسف) من وسط دوامة الخوف والقلق، وبينما أرى أمي وزوجة أخي تصرخان وأبي غير قادر على الحركة هرعت مع الضابط وقواته لنجدة أخي.

***

بخطوات واثقة يدخل (جمال) للبيت الذي شهد آلامه ومآسيه. يطأ عليه بخطواته وهو واثق تمام الثقة أنه لن يخرج منه حيًا، يستمر بالتقدم حتى يسمع صوت حركة السلاح من ظهره، يستدير ليراها ويبدأ حديثه:

- لقد جئت وحدي يا (منال)، كنت متيقنًا من أنني سأجدك هنا. خذي ثأرك مني وغادري البلدة، (أحمد) لا شأن له بما حدث، اتركيه وارحلي.

- وأنا أيضًا كنت أعلم أنك ستأتي إليّ وحدك يا سيد (ج). من أجل ذلك غادرت المشفى، كنت أدرك أنها مسألة وقت قبل أن يصل إليّ مساعدك الشاب، وقد سهلت عليه الأمر بأن تركت صورتي مع عمك على الطاولة في غرفة (أحمد)، كنت أعلم أنه سيراها ويفهم كل شيء، سيربط بين الابنة غير الشرعية لـ(كوثر القاضي) والعلاقة القديمة بينها وبين (عادل الذهبي)، ومع وجود الصورة لم يكن من الصعب عليه أن يستنتج أن تلك الفتاة الضالة هي أنا، زوجة أخيك!
- أنتِ لستِ بفتاة ضالة، لم يكن لكِ ذنب حتى لطختِ يداكِ بدماء ابنتي وزوجها.
- نعم، لطختُ يداي، بسببك أنت يا (جمال)، أم أقل يا ابن عمي! لقد دمرت حياتي أيها اللعين، بسببك صرت عديمة نسب. رفض أبي الزواج من أمي بعد مقتل خطيبتك النكرة، وحتى بعد كل هذه السنوات حينما رآني أبي مصادفة في بيت (كوثر) لم تستطع الإنكار واعترفت لكلينا بالحقيقة. جاء ليراني بعد أن سمع همهمة من أهل الحي أن السيدة الوحيدة تتردد عليها فتاة متخفية الملامح منذ سنين، ووقتها تذكر ما مضى ولن يستعاد. كان أمامي حينها فرصة أن أصير (منال الذهبي). أتعلم أن عمك قد جثا على ركبتيه كي أسامحه؟! أخبرني أنه كان يظن أمي كاذبة تهدف للإيقاع به، لم يتصور أنني حقيقة، خاصة أنها لم تعُد إليه ثانية. وعدني أنه سيعترف بي، حتى أنه قد أعطاني ميراثي في ماله. وهذه الصورة كانت واحدة ضمن مجموعة صور التقطتها معه في

القاهرة. ذاك الرجل القعيد صار حرًا طليقا بعدما علم بوجودي، لقد أحبني أيها الرجل كما أحببت أنت ابنتك، وكما أحبَّ (سليم) ابنته. (سليم) أخي و(جميلة) ابنته، لو أنهما قد عاشا، لو تركتهما يعيشان لكنت أحيا معهم الآن، لو أعطيتني الوقت لأخبره أن له أخت، لو أعطيت فتاته الوقت لتدرك أن لها عمة، لو أمهلت أبي بعضًا من وقت لأعرفه فيه، لو أنك سمحت لي أن أكون ذات عائلة، فقط لو فعلت. (جمال)، أنت لا تدرك شيئًا، لا تدرك معنى أن تحيا بلا عائلة، ولا تدرك معنى أن تجدها فجأة وتفقدها سريعًا، ولهذا أحرقت قلبك. صديقك (سالم) كان يعلم بوجودي، علم محل سكني وأرسل إليّ فيديو مصور عن كل شيء يا سيد (ج). قال لي أنه اقتصّ منك وانتهى الأمر، والآن حان دوري. لقد خسرت والداي وأخي وابنته وكل فرصة يمكنها أن تصنع مني إنسانة ذات قيمة. ماذا بقي لي؟ اسم رجل لا أنتمي إليه، وامرأة لا أعلمها قبلت مع المال أن تصير أمًا لي على الأوراق. (منال حاتم)، ذاك هو اسمي الرسمي.. من حاتم هذا؟! خادم لأمي. سُجلت باسم غريب لم أرَه ولا أعلم حتى ملامح وجهه، بينما كان أبي بجانبي في نفس البلدة، آتي مرتين كل عام وأراه كما أرى الناس في الشوارع ولا أعلم أنه أبي، وحينما جاء وقت التعويض سلبتني أنت وصديقك اللعين كل شيء. كان عليّ بعدها أن أخترع خطة وهمية، حياة للمدعوة (منال حاتم)، لقد اقتبست خطتي منك أيها المدعو (ج). صنعت دار نشر وعرضت على ابنتك عروضًا كالأحلام، نشرت لها العديد مما كتبت،

وصنعت لنفسي مكانة وهمية بين الناس. وفي إحدى الحفلات رأيته، فتى أبي المدلل، (أحمد الذهبي)، رأيته، وعلمت وقتها أنني يجب أن أتزوجه وأقتله مع ابنتك لأحرق قلبك للأبد، لكنني لم أستطع، لقد أحببته، أحببت ابن أعدائي، أحببت ولدك، هو ليس ابنًا لـ (يوسف الذهبي)، هو ابنك أنت، صنيعتك أنت، كلامه كله عنك، ذكرياته وأحلامه، حتى مآسيه، كله أنت، إلا أنني لم أستطع سوى قتل ابنتك. لقد سمعتكما يوم مقتل (سُلاف)، سمعتك وأنت تهينها، وأدركت في نفسي أن ذاك سيكون لقاءكما الأخير، لن أترك لك فرصة لتصلح ما أفسدته. كان معي نسخة من مفتاح بيتها، وصلت إليها بسهولة، هكذا هي عيوب الأصدقاء، يتسللون لكل شيء معنا بسهولة ويسر، أخذت مسدسي وأفرغته في قلب (رامي) مباشرة، لم أكن أنوي قتله، ولكنه رآني وأنا أتسلل بحثًا عن ابنتك. فيما بعد دلفت إلى غرفتها كانت تبكي بسبب ما قلته لها، لم تشعر بوجودي ولم تسمع الطلقات بفضل كاتم الصوت، صوبت عليها من ظهرها، أصبتها كما أصاب (سالم) أخي، ولكنني فعلت بثلاث طلقات لا واحدة، سقطت مغشية عليها ولم ترَني، ظننتها ماتت يا (جمال)، تعجبت عندما علمت أنها حية، ولكنني كنت أعلم أنها مسألة وقت. كنت فرحة برؤيتك تتلوى عليها لأيام طوال بالمشفى.

***

كنت قد وصلت أنا والضابط والقوات من بداية حديثها، إلا أن الضابط أمرني بالصمت والروية حتى لا نؤذي (جمال)، ظللت صامتًا ومستمعًا لما تقوله في ذهول، حتى ذكرت ما فعلته بي.

- كيف فعلتها ولم يلحظك (أحمد)؟!

سألها (جمال) وهو خائر القوى منتظرًا إجابة ما قبل الإعدام.

-كنت أنومه يا عزيزي بالدواء. يوم هجومي على ابنتك، كان نائمًا كالحصان بعد جرعة عالية من الدواء، استيقظ في السادسة صباحًا، بينما كنت أنا قد أنهيت كل شيء قبل الخامسة صباحًا. هل جربت أن تسرع بسيارتك على طرقات القاهرة فجرًا؟ إنها ساحرة يا ابن عمي، تطير وحدك وتصير غير مرئي، يا له من توقيت مثالي لارتكاب جريمة قتل! وعندما استيقظ فتاك الوسيم وجدني في سريره نائمة كالملائكة، كان ينام بينما صديقه وابنة أخيه يذبحان بدمٍ بارد...

ما إن نطقتها حتى هجمت عليها بسلاحي:

- (منال)، اتركي سلاحكِ وإياكِ أن تلمسيه وإلا قتلتك الآن. لن أسمح بمقتل أخي على يديكِ!

ولجزء من الثانية تلاقت نظراتي مع نظرات (جمال) ورأيته يبتسم لي. رأتنا (منال) وأدركت أنها لم تنتصر ما دمت حيًا، فهناك ابنًا آخر لـ (جمال)، وأدركت وجود الشرطة وعلمت أنه لا مفر لها.

- كنت أعلم أنك ستأتي يا حبيبي، أطلت حديثي حتى تأتي يا (أحمد). لم أعد أريد الحياة، لم تعد هنالك من حياة لي. ولكن قبل أن أذهب هناك هدية صغيرة عليّ أن أقدمها إلى (جمال).

أبعدت (منال) فوهة المسدس عن قلب أخي وصوبته تجاهي، وفي جزء من الثانية أطلقت النيران عليّ، إلا أن (جمال) تحرك ناحيتي لتصيبه هو عوضًا عني. لم أتذكر ما حدث فيما بعد، الضابط (يوسف) يصرخ في قوات الشرطة يطلب منهم الإسعاف. (منال) أرديت قتيلة في مواجهة مع رجال الأمن، (جمال) وقع بجانبي على ظهره، بعد أن أمطرته (منال) بوابلٍ من الرصاص. هرعت لاحتضانه وأنا أبكي مردداً عبارات الاعتذار إلا أن قاطعني بكلماته:

- لقد وعدت أُمنا يوم ولادتك أن أحميك بروحي إن لزم الأمر، إياك والندم، أنت لم تفعل شيئًا، أنا من فعل بك كل شيء، ولكنك ولدي رغم كل هذا، لا تنسَ ذلك أبدًا، لقد أحببتك أكثر من أي شيء آخر، لا تتذكر سوى هذا يا عزيزي، واغفر لي إن استطعت.

***

توفي (جمال) بين ذراعي، هذا ما أذكره، والباقي لم يعد له أية أهمية الآن، بكائي وصرخاتي التي انطلقت راجية إياه أن يعود، شعور أبي القاتل بالذنب، صرخات أمي، حالات الجنون التي أصابت (غادة)، وأنا الذي فقدت أخي وزوجتي وولدي! ماتت (منال) وهي تحمل بين أحشائها طفلنا الصغير، هذا ما علمته من تقرير الطب الشرعي. لن أعلم يومًا إن كانت على علم بهذا الجنين أم لا، الآن انتهى كل شيء، تساوى مَن ظلم مع من ظُلم، حيث لا فارق بين ثواب أو عقاب في الدنيا، جميعهم صنعوا من أنفسهم حكامًا على الآخرين، وفي النهاية واراهم الثرى جانب بعضهم البعض.

لم يعد هناك ما يربطني بتلك المدينة الحزينة، في القبر منحت (منال) ما أرادته دومًا، رفقة أبيها واسمه، دفنتها إلى جانبه ووضعت لقبها الحقيقي على شاهد القبر، الآن لم نعد نملك أكثر من القبور في المدينة البعيدة، لقد تخلصنا من كل شيء وعدنا إلى القاهرة حيث لا ماضي ولا حاضر، إلا أنه كلما نظرت إلى مقلتي صغيرتي (كرمة) أقنعت نفسي أنه ربما ذات يوم سأستيقظ لأجد فيهما بعضًا من أمل.

تمت بحمد الله.